محمود مبروك

حكاية رشاد

مجموعة قصص قصيرة

ست البيت

فضاً للخلاف الذى فرض نفسه على طرفيه، دون رغبة منهما، إتفق حسين وسناء على إعمال مبدأ التحكيم؛ حيث رأيا دعوة الأصدقاء، وبعض الأقارب من شباب العائلة، إلى سهرة فى منزلهما، وطرح القضية عليهم لإبداء الرأى. بعد تقديم واجبات الضيافة؛ جلس الجميع فى الصالون الفسيح، وافتتح حسين الحديث:

- أولاً؛ أنا شاكر ليكم جميعاً على تشريفكم لينا الليلة، والحقيقة إن عندنا مشكلة فشلنا فى حلها، وقلنا؛ ما خاب من استشار، واتفقنا على شخصيات الحضور، واتفقنا كمان إننا بعد مانطرح عليكم المشكلة، ونسمع رأيكم فيها، نحترمه ونلتزم بتنفيذه، ولو كان فى خلاف فى الرأى، ناخد برأى الأغلبية؛ زى الديمقراطية ما بتقول.

وتوقف عن الحديث لحظة، ثم اتجه إلى سناء:

- تحكى ياسناء، ولا احكى أنا؟

وردت سناء برضا وقبول:

- لأ اتفضل كمل ياحسين.

واستأنف حسين ما بدأ:

- إحنا ياجماعة من ساعة ما تجوزنا عايشين فى أمان متفقين على كل حاجة فى حياتنا، والحمد لله، دَخْلنا مع بعض موفر لنا كل اللى إحنا عايزينه، ولما ربنا كرمنا ورزقنا بعمر فرحنا بيه وشكرنا ربنا، وماكناش نعرف إنه حايتسبب لنا فى أعقد مشكلة مش عارفين لها حل.

وسأل أحد الحضور:

- خير؟ مشكلة إيه اللى سببها؟ هو لحق يعمل مشاكل؟ دا ماكملش ثلاث شهور.

- ماهى دى بالظبط المشكلة؛ هو عشان ما كملش ثلاث شهور، تلزم له رعاية متخصصة محصورة فى الأم. بس الأم زى ما حضراتكم عارفين، بتشتغل، وشغلها بيبدأ من تسعة الصبح لغاية ستة المغرب .قلنا نوديه حضانة، غلبنا على ما لقينا حضانة بتقبل أطفال رُضَّع، لكن فرحة ما تمت .سناء عدت ع الحضانة مرتين فى وسط النهار تطَّمِّن عليه، وفى المرتين لقت أنه مش واخد الرضعة، وإنه مبلول وما حدش غّير له، وفعلا كان حياخد إلتهاب رئوى، والدكتور نبهنا ما نوديهوش الحضانة دى ..

إلتقط حسين أنفاسه، ثم واصل السرد:

- قعدنا نفكر فى حل، وفاجأتنى سناء بإنها بتقول لى: لازم حد مننا ياخد أجازة ويقعد بالولد. فى الأول استغربت، وسألت سناء إزاى ما قالتش إنها هيا اللى لازم تقعد من الشغل علشان الولد؟ وفوقتنى سناء على حقيقة ما كنتش واخد بالى منها. قالت لى إن مرتبى كموظف فى القطاع العام من سنة سبعين – يعنى كملت اثنا عشر سنة – يادوب بيكمل مع الحوافز والأرباح والذى منه ميتين جنيه، فى الوقت اللى هى مرتبها كمقصدار فى أتيليه مشهور، بيعدى الخمسميت جنيه، وإحنا بتفهم كامل وتراضى ما بيننا، بنعيش بسبعميت جنيه، منهم ميتين – يعنى مرتبى بالكامل – إيجار الشقة دى، ولقينا نفسنا بنواجه مشكلة ملخصها؛ المفروض اللى تاخد أجازة لرعاية الطفل، هى الأم. لكن سناء سألتنى السؤال الصعب اللى ما عرفتش أجاوب عليه: "لو أخذت أجازة بدون مرتب، حانعيش إزاى؟" فكرت إنى أدور على عمل جنب الشركة، رغم إنى بارجع من الشغل الساعة خمسة مساءاً، وإن الشركة كمان مش حاتوافق لى على عمل تانى، وزى ما بيقولوا: رضينا بالغلب، والغلب مش راضى بينا. أنا مش لاقى شغل تانى .. وأنهى حسين حديثه ملقياً بالسؤال على الجميع:

- **ما رأيكم؟ دام فضلكم.**

همهمات، ومشاورات جانبية، وعلامات متباينة بدت على الوجوه، بعضها تجهُّم ناشئ عن الفشل فى إبداء الرأى، وبعضها إبتسام لقدْر السخرية فى الأمر، وبعضها الآخر بدا بلاهة تنأى عن الأمر فى انتظار حلول من الآخرين، وبعد دقائق على هذه الحال؛ تحدث عبدالرحمن إبن عم سناء، وصديق حسين من قبل زواجه بها:

- مشكلتكم أصعب من مشكلة الشرق الأوسط، لكن - ورغم وجود التحفظات، والعوامل النفسية - ميزتها إن لها حل واحد مالوش بدائل؛ عشان كده هى سهلة جداً فى القرار، صعبة جداً فى التنفيذ، والحل ده إن إنت فعلاً اللى لازم تقعد لرعاية عمر ياحسين.

ولم يكن حسين يتوقع رأياً غير ذلك الرأى، رغم عدم تخيله لطلب أجازة رعاية طفل، فضلاً عن تفرغه الفعلى لواجبات تلك الرعاية، كذلك صمَتَ الجميع - موافقة أو إستسلاماً لذلك الرأى - فلم يكن لدى أحد من الحاضرين حل آخر، وطالت فترة الصمت دون أن يتحدث أحد أو يعلق أحد على ما سمع، فتكلمت سناء:

- انا شايفة ياجماعة إن الحل اللى قاله عبدالرحمن هو الدوا المر اللى لازم ناخده، ولاَّ فى حد عنده رأى ثانى؟

وجالت ببصرها نحو الحاضرين جميعاً تستنطقهم، فلم يفعلوا، واستقر الرأى على ما رأى عبدالرحمن .. وبعد قليل تتابع الحضور فى الإنصراف، وبات حسين ليلته مستسلماً لقرار ظالم، لكن العدالة لم تتضح بقرار غيره ..

تقدم حسين بطلب الأجازة - وفى ظل العمالة الزائدة - تمت الموافقة، وبدأها حسين فحضّر للمهمة تحضيراً جيداً، حيث إستعان بسناء فى شرح كيفية التعقيم والتجهيز للرضعات وإعداد غيارات عمر، ومتى يتم الغيار باستعمال الغيارات التى تم شراؤها، كما تم التنسيق مع إحدى الجارات المقربات من سناء للإستعانة بها

عند الضرورة (القصوى)، ولقنته سناء ببعض التوقيتات لأعمال روتينية، مثل التعامل مع بائعة اللبن التى تحضر كل يوم، وضرورة غلى اللبن فور تسلمه منها .. وعشرات من الأعمال والإجراءات ..

فى اليوم الأول للمهمة الجديدة ، دخل حسين المطبخ فوضع إناء اللبن على النار، ورأى بعض الأوانى التى استعملت فى الإفطار فى حوض الغسيل، فشرع يغسلها، وفوجئ بالجارة – عبر المنور تقوم بنفس المهمة، فألقت إليه بالتحية:

– صباح الخير ياأستاذ حسين. لو عايز أى مساعدة، تحت أمرك.

أحس حرجاً، ورد إليها التحية والشكر بإقتضاب .. وبدأ يتدرب على التعامل مع إحتياجات عمر الصغير. ودق جرس الباب فانتقل إليه وفتحه ليجد جارة أخرى:

– صباح الخير يا أستاذ حسين. معلش، أنا عايزة منفضة السجاجيد بتاعتكم عشر دقايق.

أضناه البحث حتى وجد المنفضة حيث لم تشتمل تلقينات سناء له على مكان المنفضة ..

وفى اليوم التالى، فتح الباب لشراء اللبن، وخلال وقوفه بالباب، فتح البابان؛ المجاور والمواجه، وظهرت سيدتان ألقيتا تحية الصباح عليه، وسألاه عما إذا كان محتاجاًُ لأى خدمة فشكرهما، وقبل أن ينسحب، سألته إحداهما عن علبة كبريت فدخل إلى المبطخ حيث أشعل البوتاجاز، ثم وضع إناء اللبن وعاد إلى الباب ليعطى جارته علبة الكبريت ثم عاد ليبدأ عمله اليومى بغسيل الأوانى، فوجد إحداها تحتاج لـ "ليفه سلك" ولم يجدها على الحوض. سمع طرقاً على الباب فاتجه إليه وفتحه ليجد جارته تعيد إليه علبة الثقاب، فسألها عن ليفة وأبدت إستعدادها لإحضارها، وسمع صرخات عمر فاتجه إليه، وقبل أن يصل إليه سمع جرس الباب فهرول إليه ليتلقى "الليفة" من جارته، ويستأذنها فيغلق الباب بسرعة ويعود وثباً للصغير حيث كان محتاجاً لغيار، خلال هذه العملية، تذكر أن اللبن على النار

فعاد عدواً إلى المطبخ ليجد اللبن وقد فار وأطفأ شعلة البوتاجاز، وسال عليه وعلى أرضية المطبخ.

وحين عادت سناء من عملها، قابلها حسين مستشيطاً غضباً هستيرياً تعلوه إبتسامة:

- سناء. حانتغدى وتستريحى شوية، وننزل نشترى شوية حاجات.
- حاجات ليك ولا لعمر ولا للبيت ياحسين؟
- كله .. كله.
- عايز إيه؟
- أولاً. عايز مريلة مطبخ، وكام قميص نوم.
- قمصان نوم لمين؟
- ليّه ياسناء. أنا خلاص حاسس انى واحدة .. واحدة، حابقى واحدة ست، طول الوقت باشتغل شغل ستات .. طول الوقت باتعامل مع ستات. أنا حاسس إن جاراتنا حايبدأو يشتكولى من اجوازهم و ..
- وقاطعته سناء: كل دا فى يومين ياحسين؟
- أنا جانى هلع، وبصراحة مش حا أقدر استمر.
- والحل ياحسين؟
- نطلب حبايبنا عشان أعرض عليهم المشكلة بعد اللى شفته فى اليومين دول.
- تانى؟! تانى يا حسين؟!!

* * *

ضحية

على مقعد فى قطار السكة الحديد، على الطريق من الإسكندرية إلى مدينته؛ كفر الزيات جلس بهاء إلى جوار النافذة، وسرح ببصره إلى الفضاء المترامى من أمامه، لا يعير إهتماماً أكانت الأرض مخضرة بالزراعة، أو منزرعة بأعمدة المسلح تحمل المبانى، ولا بالسيارات تنطلق على الطريق بمحازاة سكة القطار أو فى عكس اتجاهه، لكنه كان يرى وجه حنان بنفس حجم الفضاء من أمامه، يتأمل تقاطيعها المنمنمة، وعيونها الواسعة اللامعة، وشعرها الأسود المرسل، وكأن سرعة الهواء مع حركة القطار تبعثره، وتطلق بعضه من خلف رأسها .. ويسبق تأمله سرعة القطار، لكى يتصور أحداث الأيام التالية، حين تتم خطبتها له رسمياً، بعد أن استقر فى العائلة كواقع من تحصيل الحاصل على مدى سنوات طوال أن حنان لبهاء؛ ابن خالتها والذى يكبرها بسنوات ثلاث.

ولولا ارتباطه بإنهاء دراسته بجامعة الإسكندرية لكانت الآن زوجته .. وها هو قد فرغ لتوه من أداء إمتحانات السنة النهائية، عائداً إلى مدينته الصغيرة، وأسرته الحبيبة؛ والده الحاج عبدالحليم صاحب محل البقالة الأكبر فى المدينة، وصاحب الأرض الزراعية فى بلدته الجلجمون، وكم يشفق على حياته فى هذه السن المتقدمة بعد وفاة زوجته أم بهاء قبل أن يدخل بهاء الجامعة؛ وكم كانت تحلم بتخرجه منها، وكم كان يتمنى أن يقرأ فرحتها اليوم، وهى تجلس وسط زوجها وابنيها؛ الأوسط، سامى الطالب فى الثانوية العامة، ومحمود الذى يصغره بعامين. لكن هكذا الدنيا لا تعطى لإنسان كل ما عندها .. ولقد سلموا بمشيئة الله، واعتادوا حياتهم من بعدها بمرور الأيام وتوالى السنين.

وصل بهاء إلى محطة القطار، فاستقل حنطوراً يوصله إلى البيت، واستبطأ حركة الحصان وسبقه بخياله وصولاً إلى البيت حيث يترك حقيبته، ويحج إلى بيتها

فيشحن نفسه وقلبه بالأمل، بقدر ما يمتلآن بالحب، وينطلق لسانه بالتعبير عما احتبسه فى صدره، ويشغل ساعاته القادمة فى الإتفاق معها، ومع خالته – على الترتيبات المتفق على إجمالياتها حتى من قبل أن ترحل أمه عن الدنيا ..

وصل الحنطور، وكان بهاء قد دفع للحوذى أجرته قبل الوصول، حتى يقفز فور وصوله إلى البيت ويصعد درجات السلم عدواً؛ كل درجتين أو ثلاثة فى خطوة واحدة، وأمام باب شقته فى الطابق الثانى؛ ضغط بسبابته على زر الجرس بلا إنقطاع حتى سمع صوتاً متضرراً من الإزعاج يأتيه من الداخل: "أيوه .. أيوه" إنه صوتها؛ وصوت حنان لا يلتبس عليه؛ هكذا الدنيا حين تشاء فهى أكرم من إمكانية التوقع أو حتى الخيال، وها هى تختصر الطريق إلى السعادة فتستبدل خطط الإنتقال إليها على عجل، لتكون هى فى انتظاره فى بيته. فتح الباب فإذا هى شحماً ولحماً امام ناظريه فطاف ببصره عبر مساحة الصالة من وراء الباب يميناً ويساراً لعله، يختلس قبلة مع السلام إذا لم يكونا فى مرمى بصر أحد من أخويه اللذين توقع وجودهما وحدهما بالمنزل حيث أن والده لا يعود إلى البيت قبل أن يغلق المحل عند منتصف الليل ..

لكنه فوجئ بأنها تلبس قميص نوم، وفى قدميها (شبشب بيتى)، وأنها استقبلته فى فتور، ونظرة منكسرة خجلة، وهمت فور خطوه داخل الشقة بالإستدارة والتوجه إلى غرفة النوم الرئيسية. أصابه الفزع مع الصدمة وانعدام الفهم وغياب التفسير، وناداها:

– حنان .. حنان .. فى إيه؟

لم ترد واستمرت فى السير إلى أن دخلت غرفة النوم، وأغلقت الباب من خلفها .. وقبل أن تتضاعف حيرته، ويشتد قلقه، فوجئ بشقيقه سامى يخرج من حجرته إلى الصالة فى إتجاه مصدر الصوت لدى الباب ليجد أخيه بهاء فيهرول إليه؛ يسلم عليه ويحتضنه فى شوق، وفى إشفاق من الصدمة التى تلقاها عما

قليل، ويلعن الظروف التى ألقت عليه مهمة سمجة بأن يتحمل هو إبلاغ شقيقه بما كان.

لم يترك بهاء الفرصة لسامى فى ترتيب أفكاره، وتنسيق الصياغة التى يلقى بها صاعقة ماحقة على رأسه، فبادره بالسؤال:

- فيه إيه ياسامى؟

وتلعثم سامى قليلاً قبل أن يرد على شقيقه:

- طب ادخل يابهاء، واستريح من السفر .. وحانقولك على كل حاجة.

بإنفعال شديد، وتعجل لا يقبل التمهل أو التردد؛ صرخ بهاء:

- من غير مقدمات ولا لف ولا دوران. فيه إيه يا سامى؟

ولم يجد سامى سبيلاً لكسب الوقت أو البحث عن وسيلة للتهوين على أخيه؛ فاستجمع شجاعته وألقاها دفعة واحدة:

- أبوك اتجوز حنان.
- إيه؟
- أبوك أتجوز حنان يا بهاء، وخالتك المحترمة اختصرت السكة وشافت إن أبوك جاهز، وفلوسه حاضرة وأضمن و...

وقطع سامى الحديث حين اكتشف أنه يكلم نفسه، وأن شقيقه قد وصل إلى الباب حاملاً الحقيبة التى جاء بها، وعبثاً حاول إثناءه عن الإنصراف والبقاء لحين يتدبران الأمر معاً.

وكما صعد السلم وثباً، هبط درجاته قفزاً، وعاد إلى محطة السكك الحديدية ينتظر القطار العائد إلى الإسكندرية، حيث بحث عن أقرب فرصة عمل، وحمد الله أنه لم يسلم الشقة التى استأجرها فى حى اسبورتنج حين قرر السفر على عجل شوقاً وحنيناً، فأجل تسليم الشقة أياماً يعود بعدها إلى الإسكندرية لتسليمها.

عاش بهاء فى الإسكندرية، عاقداً العزم أن يبقى فيها بقية عمره، وألا يعود إلى مدينته الصغيرة التى أحبها، وحملت ذكرياته، وأحلامه؛ أحلامه التى تحطمت باتفاق جنائى بين أقرب أثنين إلى نفسه؛ أبيه، وحبيبته.

لم يتمهل بهاء حتى يعرف أن درجة من الإكراه كانت قد وقعت على حنان لكى تتزوج شيخاً يكبر أبيها وعلاقتها به أنه كان زوجاً لخالتها، ثم أصبح أباً لحبيبها، وخطيبها القادم، وأن ثروة الشيخ، وجشع الأم وتعجلها قد داسا على قلبها الغض، ولم يقّدر تعليمها وثقافتها المحدودين، ويتمها الذى أفقدها السند بموت أبيها، فى الوقت الذى كانت فى أمس الحاجة إليه للدفاع عنها والوقوف بجانبها .. ولم يعلم أنها قاومت إمكانها قبل أن تستسلم.

وأما حنان فقد فكرت – حين اشتدت عليها الضغوط، ومنيت بالمغريات – أن تستنجد ببهاء، لكنها أشفقت عليه من وضعه فى المواجهة مع أبيه، وآثرت أن تحمل الوزر وحدها وأن تعفيه من مشاركتها فى دفع الثمن الباهظ. إذن فقد وقع المكروه، وأصبحت حنان زوجة لعجوز تكرهه، وأصبح بهاء هائماً فى الدنيا، لا يفكر حتى فى الزواج وممارسة حياة طبيعية، فأنى له أن يأمن النساء؟ ومن أين تأتيه الثقة فى إمرأة لن يعرف عنها ما عرف عن حنان .. ولن تتعرض لمغريات ما ملك أبوه منها؟

وما هى إلا شهور حتى ظهرت علامات الحمل على حنان التى عاشت محاطة بالكره؛ فهى تكره زوجها، وأبناؤه جميعاً يكرهونها؛ عن بعد، بهاء الذى كانت تحلم به زوجاً، بل مازالت تتخيله وهى فى أحضان أبيه؛ وعن قرب؛ سامى ومحمود اللذان كرها أن تحتل مكان أمهما، وأن تحطم قلب شقيقهما الأكبر، كما أنهما لم يعرفا بم ينادياها؟ طنط؟ بإعتبارها زوجة الأب وفى مقام الأم، أم حنان، إبنة الخالة وفى نفس مرحلتهما السنية، فآثرا ألا يناديانها، وأن يقصرا مخاطبتها على الضروريات.

إكتأبت حنان من هذه الحياة، ومع تقدم الحمل، وتحمل آلامه ومتغيراته، فكرت – أكثر من مرة – فى مفاتحة الشيخ فى الطلاق، لكن أمها علمت ما انتوت فعله؛ هددتها بالتبرأ منها وأنها لن تجد بيتاً يأويها، من بعد حياة لا يتأخر فيها الحاج عبدالحليم عن تلبية كل طلباتها، وتدليلها، ..

ويوم جاءها المخاض، تمنت أن تموت أثناء الوضع، لتتخلص من هذه الحياة الكريهة الكئيبة، لكنها عادت تستغفر الله، وتتمنى أن تعيش لتربية وليدها الذى لم يرتكب إثماً ولم يجن على أحد فلماذا تجنى هى عليه مبكراً كما جنت أمها عليها مؤخراً؟ ووضعتها أنثى أسمتها ولاء .. ومرت الأيام.

وحلت الإجازة الصيفية التالية، فبدأت الأفكار والبرامج لقضاء سامى ومحمود ومجموعة أصدقائهما المحدودة الأجازة بشكل ممتع، ومفيد، ومحدود بإمكانية أقلهم على الإنفاق.

كان ياسر قائد المجموعة بلا منافس، شخصية قوية، رزين، مثقف، ومرتب الفكر، تحترمه المجموعة، وتثق فى آرائه، كان زميلاً لسامى فى الثانوية العامة، وصفوت وهو إنسان طيب هادئ، منقاد بدرجة كبيرة، من أسرة ميسورة الحال وهو كريم يصمم على المساهمة فى نفقات المجموعة بمصروفه كله، ويشكل نصف إمكانيات المجموعة، وأيوب، طالب فى مدرسة الصنايع، ضحوك – ولكن إلى درجة السذاجة أحياناً، يوافق على كل ما يقترحه ياسر ويؤمن عليه إلى حد توبيخ ياسر له أحياناً، وتعنيفه:

- ياواد خللى لك شخصية وما تبقاش موافق على طول، زى بتوع مجلس الأمة.
- إيه يا ياسر؟ إنت زعلان عشان أنا موافق على رأيك؟
- مش على طول يا أيوب. إنت بتشككنى إنك ساعات ما تبقاش سامعنى وتوافق على رأيى. دا الإمام الشافعى بجلالة قدره بيقول رأيي صواب يحتمل الخطأ. يبقى أنا إزاى رأيى صح على طول؟

كانت المجموعة تتابع هذه المناقشات، وتضحك فى نهاية الأمر، لكنهم كانوا يقرون رأى ياسر فى كل الأحوال.

وكانت حنان تتنصت على حديث المجموعة، وتضع كرسياً إلى جوار غرفة سامى ومحمود، وتضع وليدتها على مائدة صغيرة أمامها، وكانت تعد الشراب لأكثر من مرة، وربما سبقته ببعض الفواكه، أو الكيك، تقدمها للمجموعة، ويزداد كرمها حين يكون ياسر موجوداً، وغالباً ما كان يمثل العامل المشترك فى الحضور..

فى البداية كانت تنادى على سامى أو محمود لحمل الصينية بما عليها من شراب أو فاكهة، ثم بدأت تدخل على المجموعة فتلقى السلام وتضع الصينية مع دعوة للمجموعة لتناول ما تحمله .. ثم تطور الأمر فكانت تجلس معهم لبعض الوقت .. ثم كل الوقت، وشرعت تشارك فى الحديث، وتقترح عليهم ما يفعلونه فى وقت فراغهم ..

ذات مرة، عرض ياسر – فى وجودها – على المجموعة الترتيب لقضاء يوم كامل فى الحديقة الكبيرة فى المدينة، واقترح أن تكون مع كل منهم أداة للتسلية والرياضة لتنويع النشاط على مدى اليوم، ووزع الأدوار على المجموعة لإحضار الشطرنج وأوراق اللعب والدومينو والكرة كما تساءل عمن يأتى بسجادة صغيرة للراحة وتناول الطعام والمشروبات. وسأل عمن يملك ترمساً للشاى، وعن اقتراحات المجموعة بقيمة الإشتراك الشخصى، لتدبير الطعام، والشاى والسكر، وما إلى ذلك، وتدخلت حنان:

- مالكوش دعوة بالأكل والشرب، انا حارتب كل حاجة، وركزوا انتم على ترتيبات الميعاد، والتحرك .. واتفقت المجموعة، وفى اليوم المتفق عليه تجمعوا أمام منزل سامى وحمل كل منهم ما تعهد به من أدوات للتسلية وعجبوا أن وجدوا سامى ومحمود لا يحملون شيئاً مما تعهدت به حنان، ولكنهم قبل أن يتساءلوا؛

فوجئوا بحنان تدفع عربة أطفال بداخلها ولاء الصغيرة، وحولها كثير من الأكياس، فألقت عليهم بالتحية.

- صباح الخير ياشباب. أنا جبت كل اللى قلت عليه يكفينا نقعد لبكره، وجبت زيادة؛ شوية فاكهة وحبل طويل عشان نعمل مسابقة "نط الحبل"، واشوف حد فيكم يغلبنى؟!

وكانت المفاجأة سعيدة، رغم غرابتها، فوجود إمرأة سيكفل إعداد الساندويتشات وتجهيز الشاى وتقديم خدمات جيدة على مدى اليوم.

فى الحديقة، فُرشت السجادة على النجيل الأخضر وجلست حنان، حيث حملت ولاء خارج العربة فأعدت لها فراشاً إضافياً فوق السجادة، ومن حولها وضعت أكياس الطعام والترمس والأكواب، وخلع الشباب أحذيتهم وجواربهم فوضعوها فى صف محاذ لحد السجادة، وشمروا أرجل بنطلوناتهم، وهموا بالإنطلاق. حين سألتهم حنان عما إذا كانوا يرغبون فى تناول بعض الطعام أو المشروبات فى البداية فأجابوها بالنفى وانطلقوا إلى غير بعيد وانقسموا إلى فريقين تحيرت الكرة فيما بين أرجلهم ..

كان ياسر مقلاً فى ممارسة الرياضة ويعتبرها مجرد منشط للجسد، بينما كان يفضل الثقافة، وأداتها القراءة، فاستأذن رفاقه فى الإكتفاء بما شارك، وعاد إلى مقر الجماعة على السجادة حيث تجلس حنان ووليدتها فجلس فى إسترخاء، ساعدت هى عليه، بوضع وسادة صغيرة سحبتها من عربة ولاء فيما بين ظهره وشجرة ضخمة من خلفه، فشكرها وأخرج من حقيبته كتاباً صغيراً فتحه على صفحة يبدو أنه كان قد أوقف القراءة عندها وعلمها بوضع قصاصة صغيرة بينها وبين الصفحة التالية لها، وشرع يقرأ حتى استوقفته حنان متسائلة بينما مدت يدها إليه وفيها كوب من الشاى وطبق فنجان فيه بعض البسكويت:

- إنت ما شبعتش قراية طول السنة؟

- طول السنة كنا بنقرا المواد الدراسية المقررة علينا. لكن دلوقتى أنا بقرا الكتب اللى أنا باختارها علشان بالاقى فيها معلومات ثقافية.
- وهى الدنيا كلها علم وثقافة؟
- يعنى. تكوين شخصية أى إنسان بيلزمها العلم والثقافة بشكل أساسى ورئيسى، لكن ما هو أنا برضه بلعب شوية رياضة على خفيف، بلعب شطرنج، كوتشيبنة .. يعنى ..
- وإيه تانى بتعمله غير كده؟
- والله، زى ما إنت شايفة، لى علاقات صداقة بزملاء، باختارهم كويس .. علاقات القرابة مع كل العيلة، الكبار والصغار.

وتساءلت بمكر ودلال أنثوى، مع غمزة بسيطة من العين:

- بس؟!

وضحك ياسر فى بساطة وسألها بتلقائية قريبة من السذاجة، أو انعدام التجربة:

- فيه إيه تانى؟
- يا سلام؟! مفيش حب؟ مفيش بنوتة تطرى الجو؟ واحدة ست تغير اللون؟
- كلامك ماشى مع اللى جوه الواحد، بس مين البنت ولا الست اللى يملا عينها طالب لسه قدامه الجامعة والوظيفة، وتوفير الإمكانيات عشان الجواز، وفتح البيت.

واستوقفته حيث أوصلته للنقطة التى أرادتها.

- إنت مش حاسس بقيمتك ياياسر. إنت سنك صغير. بس إنت إنسان كبير، ومش كل بنت أو ست عينها بس على اللى معاه فلوس، واللى يفتح بيت .. أنا قدامك أهو، تحت رجلى كل الفلوس اللى أنا ممكن أحلم بيها والحاج كتب لى

البيت اللى إحنا فيه بس مش حاسة بالإنسان اللى موفرهالى بل بالعكس؛ باكرهه كنت أفضل عليه الإنسان اللى احبه حتى لو كنا حانشحت سوا ..

وقطعت المجموعة – بعودتها – تواصل الحديث، وصاحوا فى مرح وتعبير جماعى:

– عايزين ناكل .. هم .. هم .. هم – لولا ساندويتشاتك لولا جينا.

قدمت حنان الساندويتشات والمشروبات، وإن أحس ياسر بخصوصية ميزته بها حنان دون أن يلحظ أحد. لم تسمح الفرصة حتى المساء بتكرار الخلوة بينهما حيث انقسمت المجموعة إلى ثنائيات تلعب الشطرنج أو الكوتشينة على السجادة، أو القفز بالحبل .. وقبل المساء عادت المجموعة، وخصت حنان ياسر ببعض الحديث فتأخرا عند بعض التقاطعات أو فى عبور الشوارع لبعض الوقت، ثم ما لبثوا أن انضموا للمجموعة أو انضم إليهما بعض أفرادها، فتقطع الحديث دون أن ينتهى إلى نهايات محددة، لكن الرسائل قد وصلت بتفضيله على الآخرين وقربه عنهم إلى نفسها..

تكررت لقاءات مماثلة، أو إجتماعات الأصدقاء فرادى أو متجمعين فى منزل حنان، ولم يلحظ سامى أو محمود أى خصوصية فى علاقة حنان بياسر ربما لكراهيتهم لها وإشاحتهم بوجهيهما عنها، وربما ثقة متناهية فى شخصية ياسر .. المهم، أن لحظات الإنفراد أكدت لياسر بما لا يدع شكاً، أن له مكانا خاصاً، ومكانة عالية عند حنان، ولم يصل تفكير ياسر إلى ماذا يفعل فى مواجهة أنثى تقترب هى منه دون أن يبادر هو إليها، وأن هذه الأنثى هى زوجة أب صديقيه اللذين يسيتضيفانه فى بيتهما حيث يلتقى بها، وتقترب منه، ولا له خبرة التعامل مع مثلها حتى للتعرف يقيناً على ما تطلبه هى من هذه العلاقة، فاستسلم للأحداث لتسيره فى أى طريق حتى يتلمس خطراً – أو حرجاً – فيتوقف أو ينسحب.

ذات مساء – وبموعد مسبق مع سامى – قطع ياسر الخطوات القليلة فيما بين منزليهما .. وصعد إلى الطابق الثانى، وضغط زر الجرس، وفتح الباب ليرى من خلفه – على غير العادة – حنان يغطى أجزاءاً قليلة من جسدها، قميص نوم شفاف، عارى الصدر والساقين إلى ما فوق الركبة بكثير، والضوء فى الشقة خافت لا يكاد يتضح منه شئ إلا بإنعكاس أشعته الضعيفة على جانب من الأشياء ومنها وجه وصدر حنان بينما يغرق الظل الجانب الآخر، لتبدو من توزيع الظل والنور لوحة بديعة مغرية.

تراجع ياسر خطوة للوراء، بينما ألقى إليها بكلمات متلاحقة:

– مساء الخير. سامى موجود؟

ضحكت من خجله وساءلته:

– موجود .. مالك رجعت لورا؟ إنت جاى تسأل ونازل تانى ولا إيه؟ اتفضل يا ياسر. وتراجعت قليلاً لتفسح له مكاناً محدوداً للدخول، حيث دخل، وأغلقت الباب فور دخوله، وحين اتجه إلى غرفة سامى، التى يعرف طريقها جيداً، نادته:

– ياسر. تعالى هنا ..

وتابعها ببصره، وهى تقوده إلى غرفة لم يدخلها من قبل، حتى دخلت، ودخل وراءها، وفاجأه أنها غرفة نومها .. تردد للحظة لكنه ما لبث أن أكمل خطواته، تخوفاً من أن ترى فى تراجعه سوء نية منه – كان السرير موازياً للحائط فى المواجهة، وإلى جوار الحائط ترقد ولاء الصغيرة.

جلس على مقعد إلى جوار السرير، متوتراً، وأعاد سؤالها عن سامى ومحمود حيث كان مجيئه بموعد متفق عليه، فضحكت ضحكة ذات معنى وهى تقول:

– أبوهم بعتهم البلد يجيبوا إيراد الأرض من المزارع اللى اتصل بيه الصبح، وما صدق إنه اتصل.

- ونزلوا إمتى؟
- من ساعة تقريباً.

وبحسبة بسيطة لزمن السفر والعودة والوقت الذى يقضونه فى البلد على أقل تقدير، استنتج ياسر أنهما لن يعودا قبل ساعتين، فوقف مستئذناً فى الإنصراف.

- طيب أمشى أنا .. ولما يرجعوا قولى لهم. إنى جيت وحاجى لهم الصبح إن شاء الله.

كانت تهز رأسها وكأنما تؤمن على كلامه، وما إن انتهى حتى أمرته فى دلال، وسألته بإستنكار:

- أقعد. هُوّا دخول الحمام زى الخروج منه؟

وأجابها بتلقائية لا تدرك مغزى الكلمات:

- هيا فيها حمام كمان؟!

وكأن كلماته قد اختصرت طريقاً أمامها، أو أعفتها من جهد كانت ترتب له:

- كل شئ جايز .. أقعد بس أخش أعملك كوباية شاى.
- لأ ما تتعبيش نفسك أنا حا أقعد شوية من غير شاى..

أسعدها ألا تغادر الغرفة، فأشارت إلى صينية بها بعض أصناف من الفاكهة، وطبق به لب وسودانى، وقالت له ..

- طيب اتسلى، وما تخلنيش أعزم عليك ..

وصرخت ولاء .. ثم واصلت البكاء والصراخ .. فوجهت حنان حديثها إليها:

- أيوه جعتى، وجه معاد العشا .. حالاً حا ارضعك يا فضحية.

وجلست متمددة على السرير، وحملت رضيعتها، وكشفت عن صدرها وبدأت ترضعها .. وأحس ياسر حرجاً، وأشاح بوجهه فى اتجاه صينية الفاكهة وبدأ يتشاغل بتناول بعض منها، وفرغت بسرعة مما تفعل، وضحكت مع إحساسها بالراحة وهى توجه حديثها إلى ياسر:

- تصدق إنها نامت؟

مالت بجسمها فى اتجاه الطرف الآخر من السرير حيث وضعت ولاء، ثم أفسحت مكانها لتمدد جسدها إلى جوار ابنتها، وأخلت مكانها على حافة السرير، حيث قالت لياسر:

- تعالى بقى مدد كده، وخد راحتك جنبى ..

أحس ياسر أن الشيطان لم يعد ثالثهما، وإنما أصبح أحدهما، وتخيل إمكانية تطور الأمور خطوة أو خطوتين، فيكون قد خان الأمانة وثقة أصدقائه، وقدر حجم المأساة إذا فاجأتهما عودة الحاج عبدالحليم وهما فى وضع لا يحسدان عليه، وشعر بأنه قد وصل إلى منتهى قدرته على المقاومة. فهو شاب تملؤه الرغبة، وهى تجربة جديدة عليه، بل ولطالما حلم بها، ولم يتوقع تحققها بمثل هذه السهولة وبهذه السرعة، فانتفض لتوه، وألقى عليها السلام وقد تخطى باب الغرفة، ثم باب الشقة عائداً إلى منزله.

فرضت الأيام التالية عليه، عدم التردد على صديقيه فى بيتهما، فقد أحس فى المرة الوحيدة التى زارهما فيها معاملة ملؤها الجفاء، بل البغض من حنان، وخشى من افتضاح الأمر، واستنتاج أحدهما لأسباب التغير .. وعلى أية حال، فقد انشغل بالسفر إلى القاهرة لتقديم أوراقه بالجامعة .. ولم يعد يلقاها ولو صدفة، وتعمد عدم الإلتقاء بسامى أو محمود فانطبق عليه المثل القائل: يكاد المريب يقول خذونى.

ثم كان فزعه وألمه شديدين، يوم أبلغه صديقه صفوت بمقتل حنان:

- إيه؟ إتقتلت؟ إزاى؟ إمتى ومين اللى قتلها؟

تنهد صفوت فى أسى، ولخص له الماساة:

- شوف يا ياسر .. إنت اختفيت من قبل نص الأجازة، وما صدقت الدراسة تبدأ وقعدت فى مصر وقلت عِدُّوا لى، وكمان سامى عمل زيك وراح اسكندرية، ومحمود حس بالكسوف والعار واتوارى عننا و ..
- وليه دا كله؟ إيه اللى حصل؟
- اللى حصل إن المرحومة، صممت على الطلاق، والحاج عبدالحليم لاحظ عليها حاجات كده مش تمام .. اتردد شوية فى البداية لأن العملية كانت خسرانة بالنسبة له؛ كتب لها البيت – باللى فيه طبعاً – وحاتاخد نفقة عشان حاضنة، ومعاها بنته الرضيعة، المهم؛ طلقها، وبقت هيا وبنتها قاعدين فى الدور الثانى، وهو نزل عاش فى الشقة اللى كان سايبها فاضية عشان سامى يتجوز فيها فى الدور الأول، وأيوب وعيلته فى الدور الأرضى .. وبدأ مصطفى اخو أيوب الكبير، يرمى شباكه على حنان .. طبعا موظف صغير، إنت عارف إنه كاتب فى المساحة ودخله على أده، وهى صغيرة وعندها شقة جاهزة .. المهم .. بعد شهور العدة على طول إتجوزوا وشوف بقى الحاج عبدالحليم الله يكون فى عونه، صبح ومسا، شايف مراته اللى باعته وبنته فى حضن شاب فى بيته وعلى فرشته.

عموما، المهم، إن العريس الجديد، اختلف مع العروسة بسرعة، وبدأت تعايره بأنها اخذته بشنطته، وبقى يضربها كل علقة والتانية .. والأهم إنه بدأ يراقبها ويرجع من الشغل فى وسط يوم العمل .. واضح إن الشكوك وصلت معاه لمستوى مش طبيعى ..

من أسبوع لقوا جثة حنان فى الشقة وفيها خمس طعنات سكينة، ولسة المباحث بتشمشم، وتدور، وتحقق مع ناس.

- وتفتكر إنت مين اللى عملها ياصفوت؟

- ماهى بين الحاج عبدالحليم وبين مصطفى، يعنى جوزها الأولانى وجوزها الثانى.
- وليه ما يكونش بهاء اللى حرمته يكون جوزها أصلاً؟
- والله ممكن .. ودا بعيد خالص عن فكر المباحث ..
- مش مهم مين اللى قتلها، بس ياترى مين الجانى ومين الضحية؟

* * *

ضربة رأس

كان على استعداد – حتى – أن يترك الدراسة، إذا تعارضت مع ممارسته لهوايته المفضلة، ولم يكن قد حصل على الشهادة الإبتدائية حين رفع أبوه الراية، وتخلى عن مقاومته لرغبة ابنه الجارفة، حتى لا يفشل فى الدراسة .. ولا ينجح فى تحقيق ما يصبو إليه من هوايته.

إلتقطه أحد كشافى الموهوبين من بين لاعبى الكرة الشراب فى الشوارع الفرعية والحوارى والأزقة، وقدمه للنادى الكبير الذى طالما حلم أن يدخله، وأن يرى لاعبيه وخاصة أن الناس كانوا يعرفون اللاعبين عن طريق الجرائد، وسماع الوصف التفصيلى للمباريات من خلال الراديو.

وخلال أسبوع؛ أصبح شكرى لاعباً أساسياً فى فريق الأشبال؛ ولأنه نجح فى تسجيل هدف من كل كرة تمرر إليه فى كل تدريب أو مباراة رسمية، وكرأس حربة، أصبح معقد أمل ناديه وجمهوره فى تسجيل هدف أو أهداف فى كل مباراة، وأصبح على المدرب أن يضع الخطة التى تمكن فريقه من توصيل الكرة إلى شكرى أينما كان موقعه فى الملعب ليسجل منها.

مرت شهور، ثم سنوات قليلة نال فيها شكرى شهرة مدوية بعد أن انتقل إلى الفريق الأول بالنادى، وأصبح على مدربى فرق الأندية المنافسة أن يضعوا الخطط التى تحقق مراقبة لصيقة لشكرى وتضييق الفرص أمامه، وعدم تمكينه من اللعب بحرية، ومع ذلك استمر قادراً على فتح ثغرات يصل منها إلى تحقيق هدفه، وأصبح هتاف الجماهير، بمجرد تصويب أى لاعب فى فريقه للكرة فى اتجاهه: شكرى .. شكرى .. سجل بدرى. ويسجل شكرى (بدرى).

فى المباراة النهائية على كأس مصر – وقد كاد الوقت الأصلى أن ينتهى بالتعادل بين ناديه وبين النادى المنافس على الكأس – مرر أحد لاعبى وسط

الملعب إلى شكرى، وجاءت التمريرة طويلة نسبياً حتى وصلت فوق المرمى، وقفز شكرى عالياً .. عالياً؛ أعلى من الكرة، وأعلى من (العارضة) وسدد الكرة قوية داخل المرمى؛ فسجل الهدف، ثم اصطدمت رأسه بقوة – بـ (العارضة) فسقط مغشياً عليه.

اشتعل الملعب بالحماس، والهتاف بإسمه، لكنه لم يسمع شيئاً من ذلك، حيث حملته سيارة الإسعاف وانطلقت به إلى المستشفى، وبعد أن تم توقيع الكشف الطبى عليه خرج طبيب العيون إلى أهله وجماهير ناديه، ووسائل الإعلام ليعلن لهم فى أسى وحزن شديدين:

– بكل أسف أصيب شكرى بانفصال شبكى أدى إلى فقده البصر، ويحتاج إلى عملية فى أسبانيا ..

أعربت الجماهير عن إستعدادها للإكتتاب لسفر شكرى إلى الخارج، إذا لم تكن ميزانية النادى تسمح بذلك، وردت إدارة النادى بتأكيد:

– مش حاناكل شكرى لحم، ونرميه عضم .. حيسافر أسبانيا، وحانخصص له ميزانية مفتوحة ونسفره لأبعد مكان فى العالم، ونعرضه على أكبر اطباء العيون.

فى أحد مستشفيات العيون الكبرى فى أسبانيا والعالم، أجريت العملية الجراحية لشكرى، وجاءت لحظة فك الضمادات والرباط المحيط برأسه. وقفت مجموعة من الأطباء .. والممرضات .. رأى شكرى أشباحهم، ثم اتضحت صورتهم رويدا .. رويدا، وصاح شكرى بالعربية: أنا شايفكم .. الحمد لله .. بس الإضاءة ضعيفة ..

وهتف ممثل السفارة المصرية فى مدريد الذى وصل إلى المستشفى لحضور هذه اللحظة:

– الحمد لله .. ألف مبروك.

ثم ترجم ملاحظته عن الإضاءة للأطباء فلفتوا نظره إلى أنهم أرخوا الستائر لحجب ضوء النهار حتى لا تتعرض عينا المريض للضوء المبهر دفعة واحدة بعد فك الأربطة، تلقى شكرى تهنئة السفارة، ثم توالت عليه البرقيات من مصر؛ من مجلس إدارة النادى، ومن اتحاد كرة القادم، والمسئولين عن الشباب والرياضة ومئات من عشاق الكرة المصرية ومحبى أدائه بالذات.

تحسنت حالة شكرى، واكتملت سلامة الرؤية، لكنه حين أحس بصداع متواصل لعدة ساعات، ضغط على زر استدعاء الممرضة التى حضرت على الفور، فطلب منها قرص أسبرين، وسألته الممرضة عن سبب طلبه، وحين أبلغها أنه يشعر بالصداع؛ انصرفت، ثم عادت بعد دقائق، ومن خلفها مجموعة من الأطباء (كونسلتو) إنشغل أحدهم بقياس الضغط، والآخر بعد النبض، وثالث كشف على صدره بسماعته، والرابع وجه له عديداً من الأسئلة، ثم تشاوروا، وأمسك أحدهم بتذكرة المريض حيث سجل عليها التشخيص ووصف الدواء الذى سارعت الممرضة إلى صرفه وإعطاء شكرى الجرعة الأولى منه؛ فعبر عن تعجبه ودهشته الشديدة من كل هذه المبالغة وتساءل:

- ليه دا كله؟! إحنا عندنا بنشترى الأسبرين من البقال.

واستنكرت الممرضة سؤاله فأجابته بإختصار:

- علشان كده .. انت هنا.

وعلى كل حال، فقد تحسنت حالته، وتمت معالجة كل الأعراض الجانبية، وحين اكتمل الشفاء، أعلنت الصحف المحلية موعد عودة شكرى وتوقيت وصوله إلى المطار.

لم تكن أسرته أو أصدقاؤه وأقاربه، وحدهم فى إستقبال شكرى بل زحفت الالاف من جماهير ناديه تحمل لافتات الترحيب ومعهم كاميرات الصحف، وحمل شكرى على الأعناق حتى أجلس فى السيارة التى نقلته مباشرة إلى مقر النادى،

حيث كان فى إنتظاره آلاف آخرون هنأوه على سلامة العودة والشفاء، وطالبوه بالعودة إلى الملاعب فى أقرب فرصة.

بعدها لاحظ شكرى خلو قوائم اللاعبين الأساسيين، والإحتياطيين من اسمه لعدة مباريات متتالية، فتوجه إلى رئيس النادى مستفسراً: أنا مش عارف إيه سببب إستبعادى من كل الماتشات، وتردد رئيس النادى قليلاً – ولأنه لم يملك رفاهية الصمت أو عدم الرد – قال آسفاً:

- أنا مش عارف أبدأ منين ياشكرى. لكن انت أكيد عارف كويس إن النادى محتاج لمجهودك، مركزك فى الفريق محدش قدر يشغله، لكن بكل أسف إن دكتور النادى لما قرا التقرير اللى المستشفى بعتته مع الفاتورة، لقى توصية مشددة وفيها تحذير من اشتراكك فى أى مباراة، أو حتى تعرض رأسك لأى إصطدام مع أى جسم لأن دا حايتسبب فى فقدك للبصر بصفة نهائية. ورد شكرى:
- أنا مستعد أمضى على إقرار بأنى ألعب على مسئوليتى، وأقدر العب برجلى وصدرى وجسمى، وعلى الأقل أجرب مباراة ولا اثنين.
- مش مسألة مين يتحمل المسئولية ياشكرى .. المسألة هى صحتك اللى احنا كلنا حريصين عليها، ومن الأنانية اننا نبص لمصلحة النادى بس، واحنا متأكدين ان فيها ضرر كبير عليك.

وحاول شكرى، لكن قرار رئيس النادى كان نهائياً، وأصابت شكرى حالة من الاكتئاب الشديد؛ فحب الجماهير، وممارسته للهواية التى عشقها منذ نعومة أظفاره – إضافة إلى نصيبه من المكافآت والبدلات – والذى يمثل كل دخله حيث أنه لم يحمل مؤهلاً بعد الشهادة الإبتدائية، ولم يلحق بعمل يرتزق منه، مثلت كلها حرماناً لم يقوَ على تحمله، كما أن الجماهير التى أحبته، زحفت إلى بيته مطالبة له بالعودة إلى الملاعب، وحين أبلغهم بحقيقة الأمر، مارسوا ضغوطاً قوية على إدارة

النادى لإعادته إلى الفريق، وتواصلت هتافاتهم فى كل المباريات بإسمه والمطالبة بعودته وقبل إحدى المباريات الهامة فى ختام مسابقة الدورى، توجه عدد كبير من الأعضاء إلى منزل شكرى وحملوه إلى النادى حيث صمموا على استجابة مجلس الإدارة لمطلبهم، وأبدى شكرى إستعداده المستمر لتوقيع إقرار باللعب على مسئوليته.

خرج رئيس النادى إلى الأعضاء وأعلن أن شكرى سيشارك فى المباراة القادمة، وطلب من الأعضاء الدعاء له بالسلامة .. وهتف الأعضاء وحملوا شكرى على الأعناق .. انضم شكرى للتدريبات النهائية للفريق وسط فرحة زملائه وارتفاع حالتهم المعنوية خاصة حين لاحظوا استعادته للياقة التامة، وترقبوا أداءاً يعيد البسمة للجماهير.

ونزل الفريقان إلى أرض الملعب. إلتهبت أكف الجماهير، وأرهقت الهتافات حناجرها، ووقف شكرى رافعاً يديه تحية للجماهير، وجال ببصره حول المدرجات وغمرته فرحة جارفة .. وأطلق الحكم صافرته .. وبدأت المباراة وفى دقيقتها الثالثة سقطت الكرة فيما بينه وبين مدافع فى الفريق الآخر فانقض عليها المدافع حيث ركلها بقوة، واصطدمت برأس شكرى من بعد أمتار قليلة، فسقط على التو وحمله رجال الإسعاف .. وفى المستشفى تأكد فقده لبصره إلى الأبد ..

عاش شكرى محروماً من مزاولة اللعبة التى أحبها أكثر من عينيه، ومحروماً حتى من مشاهدة مبارياتها.

* * *

حكاية رشــاد

القرية مستنفرة عن آخرها؛ كل الشباب، وبعض الكبار والقصر من عائلة حمدتو، وكل من علم بملخص الحكاية، سحب "شومة" أو ماسورة معدنية أو حتى فأس، وتوجه على عجل، إلى عيادة الدكتورة وفاء؛ طبيبة أمراض النساء والتوليد ليشارك فى حصارها بحيث لا يدخلها أو يغادرها إنسان. حتى صلاة العشاء والتراويح لم تخفف الضغط عن الحصار.

وقف أشقاء وردة؛ المتوفاة منذ أقل من ساعتين بعد توليدها، وانصراف الدكتورة وفاء للإفطار فى منزلها، فلم تجد وردة من يوقف نزيفها حتى أسلمت الروح، ووصل النبأ إلى العائلة، والقرية بصيغته الإستفزازية: الدكتورة وفاء قتلت وردة بنت حمدتو ..

تعالت صيحات الشباب بالمقترحات الإنتقامية:

- نولع فى العيادة باللى فيها..
- لأ نطلع نجيب الدكتورة من شعرها ونولع فيها لوحدها.
- طيب وجوزها المأمور ؟
- لا يهمنا مأمور ولا حكمدار. اللى حاييجى يمنعنا حانولع فيه كمان.

ويسمع صوت خافت وجل من أحد أبناء جيل الوسط فى العائلة :

- قبل ما البلد تتكوى بنار الغضب، لازم نتصل بكبيرنا الحاج إسماعيل فى بني سويف، يحضرنا ويشور علينا.

ورد شقيقها عبدالرحيم:

- عم الحاج إسماعيل لو فط .. نط واتحرك أول ما نكلمه، يوصلنا على نص الليل، وتكون حصلت فى الأمور، أمور.

ورد رشاد، الشقيق الأكبر:

- أنا النار بتاكل فيه، بس لازم يعدينا العيب، ونبلغ كبيرنا.

أخرج تليفونه المحمول وطلب الحاج إسماعيل، وبمجرد أن أبلغه بما وقع، صرخ فيه الحاج مشدداً:

- إوعوا حد يعمل حاجة لغاية ما جيلكم. أنا حاتحرك بعد خمس دقايق.

أدار الحاج إسماعيل محرك سيارته، ومر على حسان إبن شقيقته المحامى الشاب فاصطحبه، بعد أن أتصل به، وكلفه بالإستعداد لمرافقته، وكذلك فعل مع ابن عمه برهان الأستاذ بالجامعة فالتقطاه من الطريق خارج بنى سويف، واستكملوا الطريق حتى وصلوا إلى أول مراكز محافظة المنيا فعرجوا على الطريق الفرعى إلى القرية وعند حدودها الشمالية، قال الحاج إسماعيل: قدامنا ليلة طويلة. أنا شامم شياط من هنا، ويارب ما يكونش حد من الولاد اتهور وقطع خط الرجعة.

وقال الدكتور برهان:

- ربنا يستر، ونلم المسائل .. وفى كل الأحوال وجودنا حايسيطر على الأحوال إن شاء لله.

لم يكن أحد من ركاب السيارة يعرف عنوان العيادة وموقع الأحداث حولها، ومع ذلك فقد ترامت أصوات الجموع إلى سمعهم، ورصدوا اتجاه حركة بعض الأفراد إلى مصدر الصوت فتبعوه حتى وصلوا، ومع إبطال حركة المحرك، فتحت الأبواب فى توقيت واحد ونزل ركابها فاستقبلهم الجميع وفى مقدمتهم رشاد وعبدالرحيم بعيون دامية، وصوت متهدج فاحتضنهم الحاج إسماعيل وواساهم. وسمع منهم ملخصا لما حدث، فهدأ من روعهم بعبارات مسموعة قصد توجيهها للجموع، وطلب من الكل الإلتزام بما يتم الإتفاق عليه، والتسلح بالعقل والإتزان رغم الحزن والشعور بالفقد لعزيزة على الجميع، ما يزالون يذكرون عرسها منذ أقل من عام، وها هم اليوم يتجمعون حول جسمانها المسجى على سرير تغطيه الدماء فى العيادة بالطابق الثانى فى المبنى الذى يحيطون به ..

وسأل الحاج إسماعيل عن الطبيبة، فأجيب بأنهم لا يعرفون إذا ما كنت لا تزال فى العيادة أم غادرتها، وسأل عما إذا كانوا قد حرروا محضراً فى قسم الشرطة، وأجابه رشاد:

- ماهى الكاينة إن جوزها مأمور المركز.

فقال له الحاج إسماعيل:

- طيب تعالى معانا نروح المركز، وخللى عبدالرحيم هنا مع الرجالة، ويسيطر على تصرفاتهم لحد ما نيجى.
- ماهو المأمور قاعد فى عربية الشرطة اللى واقفة الناحية التانية من الطريق ..
- طيب كويس، يبقى خليك إنت كمان يارشاد .. واحنا حانروح نتكلم معاه.

واقترب الرجال الثلاثة؛ الحاج إسماعيل، والدكتور برهان والمحامى حسام من سيارة الشرطة، وقبل أن يصلوا إليها، نزل المأمور، وتقدم نحوهم مقدماً نفسه:

- عقيد على الزعفرانى، مأمور المركز، وزوج الدكتورة وفاء.
- أهلاً وسهلاً.

قالها الحاج إسماعيل ثم قدم مرافقيه للمأمور، مستأنفاً:

- إحنا عايزين نقعد فى مكان بعيد عن اللمة، نقدر نتكلم فيه بعقل.
- بكل سرور، لو يناسبكم تشرفوا معايا فى المركز.
- لأ بلاش المركز علشان الناس ما تفتكرس اننا انقبض علينا، ويتظاهروا حوالين المركز.
- طيب زى ما تشوفوا، وأنا كمان حامشىّ عربية الشرطة واركب معاكم علشان ما يكونش فيه أى تفسيرات كده ولا كده.

ونادى الحاج إسماعيل على رشاد الذى أسرع إليه بين ترقب الجموع ومتابعتهم لما يجرى فسأله:

- فيه عندكم مكان بعيد شوية عن هنا، نقدر نقعد نتكلم فيه؟

- من شوية كان مرسى ابن خالى بيقوللى نروح البيت عنده فى العزبة اللى جنبنا، وأنا ماوافقتش امشى واسيب الناس.
- لأ قول لمرسى يجيب عربيته، وياخد البيه المأمور، ويعدوا على الدكتورة يجيبوها معاهم، ونتقابل عنده فى البيت، وانت معانا فى عربيتنا ..

واجتمع الفرقاء فى بيت مرسى الذى استقبلهم بكرم بالغ .. وبعد تقديم واجب الضيافة، افتتح الحاج إسماعيل المجلس بسم الله الرحمن الرحيم، وتعزية الجميع فى ذلك المصاب الفادح ثم أعطى الكلمة لرشاد لسماع رأيه وطلباته، فهاجم الطبيبة بعنف مستخدماً بعض الشتائم والأوصاف المسيئة، وطلب أن تسجن كما قتلت شقيقته، كبديل لأخذ الثأر بأيدى الأهالى.

واستوقفه الحاج إسماعيل معاتباً:

- خللى بالك: أول هام؛ الناس دول ضيوفنا ومن حقهم علينا إكرامهم ومين دخل دارك، جاب الحق عليك، تانى هام. إحنا مش حا ناخد حقنا شتيمة يارشاد، وإنت عارف إن الأبيح شتم الملك. لأ إحنا عايزين نتكلم كلام عقل وقانون، والقوى، اللى يملك نفسه عند الغضب. أنا عايز اسمع اللى حصل من الدكتورة.

وبدأت الطبيبة تروى ما حدث، وهى فى حالة غير متوازنة، ويتضح ما تعانيه من اضطراب:

- وردة جت العيادة مع آذان العصر. كشفت عليها، وكان فيها الطلق، حضرتها للولادة، وبعد ساعة، ولدت ولادة طبيعية، والمولودة ما شاء الله بخير .. وتابعتها، لغاية ما ندهت علىّ وهى مفزوعة، ودخلت لقيت عندها نزيف مايقلقش. إديتها حقنة وقفت النزيف وتابعتها ساعة كمان لقيتها زى الفل. كانت السكرتيرة روحت الساعة ثلاثة، وأنا قعدت فى العيادة لغاية قبل آذان المغرب بربع ساعة، قلت أروح بسرعة أجهز الفطار لجوزى وابنى وارجع فى خلال ربع ساعة بعد الفطار، رجعت لقيتها غرقانة فى الدم وثلاث ستات من قرايبها

عمالين يصوتوا لغاية مالموا البلد. إتصلت بـ "على" جانى بسرعة خدنى علشان ما يتعدوش عليَا.

استمع الحاج إسماعيل بإنصات، مَنَع المقاطعات، والتصويبات خلال حديثها ثم قال لحسام.

- طيب نسمع رأيك القانونى يا متر..
- هو طبعاً فى حالة إهمال جسيم بنعبر عنه فى القانون بالقتل الخطأ .. يعنى أكيد الدكتورة ما تعمدتش تقتل وردة لأن مالهاش مصلحة فى كده، بل على العكس مصلحتها، إنها كانت تقوم بالسلامة وما تبقاش فى سمعة وحشة للعيادة فى بلد صغيرة زى دى، وعشان كده أنا شايف إن الكلام يكون فى الحدود دى، لا زيادة، ولا نقص. يعنى لو خدنا بالشرع، وبالقانون، يبقى الكلام عن التعويض المنا سب لحجم الخطأ اللى وقع.

وعلق الدكتور برهان:

الله ينور عليك ياحسام، ودا مش معناه إن احنا - لا سمح الله - بنبيع بنتنا، لكن إحنا بنطبق شرع ربنا، لو قتل عمد حا نتكلم فى القصاص .. قتل خطأ يبقى الكلام فى الدية .الكلام ده فيه غلط ياسيادة المأمور؟

وكأن طوق نجاة قد ألقى إلى المأمور فقد كان ازدواج علاقته بالطبيبة، كزوج، وكقائم على تنفيذ القانون فى شأن جريمة وقعت على يديها فى دائرة اختصاصه مؤلماً، وكانت سلطته فى تفريق الأهالى ومنع ارتكابهم لجريمة كبرى، فى مواجهة مسئوليته الضمنية عن خطأ زوجته يمزق عقله وضميره، ويشل تفكيره، فرد بإستسلام وضعف:

- لأ. ربنا ما يجبش غلط، وأنا عايز اسمع كلام رشاد.

كان رشاد ما يزال غاضباً ينتفض جسده مع كل نفس عميق يسحبه من السيجارة التى أشعلها من سابقتها فسكت برهة بدت زمناً طويلاً مع صمت وترقب الحاضرين ثم قال:

- مليون جنيه. دية أختى مليون جنيه.

سكت الحاضرون، وذهلوا، وازداد قلقهم حين نظروا إلى المأمور وزوجته الطبيبة فقرءوا على وجهيهما حجم الفاجعة، وانتظروا مصيبة على وشك الوقوع، فتدخل الحاج إسماعيل بما فاجأ الجميع:

- خللى بالك يا رشاد. أنا اللى حا دفع الدية.

ورد رشاد:

- وانت تدفع ليه ياخال؟ دا إنت ولى الدم .. وإنت اللى تطلب الدية..
- طيب إحنا لازم نفك الإشتباك، ونخلص الموضوع خلال ساعة، ولا اتنين بالأكثر، عشان إحنا لسة حا نرجع بني سويف الليلة دى. شوف لنا مكان يامرسى نقعد فيه عشر دقايق على جنب.

ورد مرسى فى تجاوب سريع:

- تحت أمرك ياعمى، المطارح كثيرة، اتفضلوا. أى مكان يعجبكم.

ونادى الحاج إسماعيل على ثلاثة من الحاضرين، طلب منهم مرافقته فى جلسة جانبية:

- اتفضل ياجناب المأمور، وتعالى معانا ياحسام .. وانت يامرسى، لو سمحتم.

واستسمحه المأمور فى أن ينضم للمجموعة، الدكتور رشدى، صديقه ومرافقه فى الجلسة، وانتقلت المجموعة إلى غرفة مجاورة حيث بدأ الحاج إسماعيل بسؤال وجهه للمأمور:

- أنا سمعت منك اللى فهمت منه موافقتك على مبدأ التعويض، وأنا عايز أسألك عن مقدرتك تدفع كام، ودا كلام بينا إحنا الخمسة، واعتبرنى أخوك الكبير فى السن، وحا اتكفل بباقى اللى يطلبه رشاد.
- تردد المأمور، وتلعثم، فبدا – قبل أن يتحدث – ألاّ مقدرة له على الإطلاق، ثم قال فى خجل:
- اللى حاتحكم بيه ياحاج، ويوافق عليه رشاد، أنا ملتزم أدبره، بجمعية أقبضها الأول، بسلف من صديق، الدكتور رشاد صاحب فضل عليّ، وصمم ييجى معايا عشان الموضوع ده، رغم إنى مازلت مديون ليه بباقى ثمن الدوا والمستلزمات اللى سحبتها من الأجزخانة بتاعته علشان أعالج ابنى الوحيد من الإصابة اللى اتعرض لها من سبع شهور، لما خبطته عربية، وعرض على اللى سايقها أطلب أى مبلغ فى مقابل عدم عمل أى إجراءات قانونية ضده – وأقسم بالله – أنا ما أخذت منه مليم، وقلت له مع السلامة وأنا لا أملك أى مبلغ من اللى كنت عارف إنى حا اضطر اصرفه .. وأنا مش باقول كده علشان حاجة، لأنى أنا كان لى حق، واتنازلت عنه بمحض إرادتى، لكن رشاد مش مضطر يتنازل، خصوصاً إن اللى حصل لإبنى كان إصابة، لكن رشاد أخته توفت، وأنا والله قلبى معاه، وبعذره فى غضبه بس الأعمار بيد الله، والدكتورة اطمنت على المرحومة بعد الولادة ووقف النزيف، وبحسن نية جت البيت علشان تفطرنا، ووقع المقدر، وهى غلطانة رغم الكلام ده، على الأقل كانت اتصلت بحد من أهلها يقعد معاها .. ولو عاوز رشاد يعمل بلاغ ويتهم الدكتورة، أنا شخصياً حا امكنه من ده ..

واستوقفه الحاج إسماعيل إستباقا لدمعة بدأت تبرق بها عينيه، واستأذن الحاضرين وخرج من الحجرة فتوجه إلى الجمع فى الغرفة المجاورة حيث نادى رشاد فخرج إليه وانتحيا ركناً فى صالة الشقة وقال له:

- يارشاد يا ابنى، ارحموا عزيز قوم ذل، المأمور فى موقف أنا مقدره ومشفق عليه، لولا كبرياء وظيفته ورجولته - كان وقع فى عرضنا بكلام مباشر، وهو حكى لنا اللى عرفنا منه إن عليه دين للراجل اللى معاه وإنه - لو حكمنا عليه بأى مبلغ - حا يلتزم وحا يضطر يستلفه من الدكتور ويزود الدين اللى عليه .. وكفاية إنه إعترف بغلط مراته وقال إنك لو عايز تبلغ حا يعملك البلاغ بنفسه و..
- كفاية يا خال .. أنا ملايين الأرض ما تعوضش نقطة دم نزفت من أختى، بس أنا موجوع يا خال.
- ماحدش حايغلطك لو اتمسكت بموقفك .. بس أنا باقولك يابخت مين قدر وعفى، والرسول الكريم قال لكفار قريش، اللى عذبوه، وحاربوه، وخرجوه من بلده اللى بيحبها، بعد ما قدر وفتح مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء. والقول قولك يا رشاد.
- ياسلام يا خال! هو بعد كلامك ده فيه كلام. أنا كمان حا اقول له، روح وانت طالق.

ضحك الحاج إسماعيل ضحكة عالية أثارت إستغراب الجميع، وتلتها قهقهة قال معها:

- الله يحظّك يا رشاد، إسمها طليق ياوله، مش طالق، هو المأمور على ذمتك؟
- خلاص ياخال. مش كل واحد على قد علامه. أنا يعنى حا اتكلم بالنحوى. المهم إنى خلاص مش عايز منه حاجة، وربنا يعوض علينا.
- الله يفتح عليك يا رشاد وينور بصيرتك ويعوضكم كل خير. ويقدركم - واحنا معاكم إن شاء الله على تربية المولودة.

واتجه إلى الغرفة الجانبية التى تضم المأمور وصديقه الدكتور رشدى وحسام المحامى، ومرسى المضيف، وقال بصوت عالٍ:

- ياجماعة رشاد متنازل عن حقه، وسايب العوض على الله، وما فيش فى قلبه حاجة كده ولاّ كده، اتفضلوا ننضم لباقى الحاضرين.

وانتقلوا إلى الغرفة الأخرى حيث أعلن نفس المضمون بين استحسان الحاضرين والذى وصل إلى حد التصفيق، وقاموا جميعاً يسلمون على رشاد ويقبلونه، كان آخرهم المأمور الذى شكر رشاد على إنسانيته وتفهمه وصفحه، تلاه الدكتور رشدى، ثم كانت الدكتورة وفاء التى مدت يدها بالسلام على رشاد فتردد قليلاً، أو أبطأ هنيهه، لكن الحاج إسماعيل ناداه بدرجة من الزجر:

- مد إيدك يا رشاد سلم على الدكتورة. اتعلم يا أخى لما تعمل حاجة كويسة تكملها للآخر.

مد رشاد يده وصافح الدكتورة وسالت من عينه دمعة حارة، قطع مرسى الطريق على الإسترسال فى تجسيمها لموقف حزين يعبر عن حقيقة الحال، فدعا الجميع لوجبة سحور تم تجهيزها على عجل، ليكون بينهم عيش وملح ..

وعاد الجميع إلى القرية متصالحين، فانصاع الباقون للصلح، وانصرفوا، وعادت جماعة بني سويف إليها.

بعد عدة شهور، تلقى الحاج إسماعيل مكالمة من رشاد:

- يا خال. محمد بن عمتى فاطمة، اتقبض عليه فى قضية متلفقة، واتعرض على النيابة وقررت الإفراج عنه بس لسة محجوز فى المركز عشان بيفيشوه، ويشوفوا ليه قواضى تانية ولا لأ، ياريتك تكلم العقيد الزعفرانى، يسهل له الإجراءات، وبكره موسم، والعيلة فـ نكد.

إقفل يا رشاد وحارد عليك.

ولم تستغرق المكالمة بين الحاج إسماعيل والمأمور دقيقتان وعد خلالهما بأن يبيت محمد ليلته وسط أولاده.

بعد ساعة رن جرس الهاتف ورد الحاج إسماعيل.

- أيوه يا رشاد؟

- متشكرين يا خال .. معاك محمد عايز يشكرك عشان خرج من المركز.

* * *

قصـــة قصيـرة جـــداً

الرصيف الآخـر

على كرسي متحرك جلس الرجل بينما دفع عجلاته بكلتى يديه لمسافة قصيرة على الرصيف. ثم توقف، وأدار الكرسي ليتعامد مع الطريق، ثم صاح:

[حـد يوصلني الرصيف التاني من فضلكم]

تقدم أحد الشباب فأمسك بمقبضي الكرسي ودفعه ببطء إلى حافة الرصيف، ثم تلفت يميناً وشمالاً يرقب حركة المرور وحين توقف سيل العربات، دفع الكرسي دفعاً يسيراً لكي يهبط به من الرصيف ثم عبر الطريق إلى الرصيف المقابل فضغط على يدي الكرسي إلى أسفل لترتفع مقدمته وعجلتيه إلى أعلى فتلامس حافة الرصيف ثم رفع اليدين ودفع بهما إلى الأمام ثم توقف وخاطب الجالس على الكرسي:

- إحنا ع الرصيف التاني يا أستاذ. عايز تروح فين؟ لم يرد الرجل، فعاد الشاب يحدثه من جديد بينما ربت على كتفه:
- يا أستاذ. إحنا ع الرصيف الثاني.

ولم يرد الرجل فترك الشاب مقبضي الكرسي وتقدم خطوتين ثم استدار لمواجهة الرجل ليجده مغمض العينين. وضع يده على رأسه فأحس به بارداً ... وأمسك بمعصمه لم يجد نبضاً... مات الرجل ... مات قبل أن يفصح عن سبب رغبته في الانتقال إلى الرصيف الآخر. ولم يعرف أحد ممن تجمعوا حوله: هل كان يعني الانتقال إلى حياة أخرى؟ ربما .. وأيضاً ربما أراد أن يهرب من مصيره المحتوم.

على أية حال – لقد تلاشت الخيوط التي يصنع من غزلها نسيج القصة، لا شخوص ... لا أحداث ... لا حياة.

انتهت القصة قبل بدايتها

فاطمـــــــــــة

(1)

ارتاح كثيراً لتقاطيعها المنمنمة الدقيقة، ولمعة عيونها. واسترسال شعرها الفاحم إلى ما بعد منتصف الظهر، وصوتها الدافئ الخفيض، وقبل ذلك رقة مشاعرها، وهدوء حركتها. ومع مرور الزمن تحول الإعجاب إلى درجة من التقدير .. لكن تآمر العين والقلب مع العقل والحس أضاف كثيراً من الحب، تقدم في ثبات، درجة، فدرجة، وأضاف الاعتياد على رؤيتها، والجلوس معها والحديث إليها مناعة ضد التحول عنها، أو الالتفات لغيرها.

كانت صديقة لشقيقته، تتردد عليها كل يوم خلال شهور الدراسة للاستذكار معها، وفي الأيام التي كان الليل يزحف بأسرع مما تسمح الشهامة بتركها تنصرف إلى بيتها وحدها، كان يرافق شقيقته لتوصيلها حتى باب منزلها...

ولاحظت عزيزة تطور المشاعر بين شقيقها رمزي وصديقتها فاطمة ورضيت عنه فهي تعرف عن صديقتها الأدب والعقل الراجح، والمشاعر الصادقة، كما كانت واثقة من تمتع رمزي بكل الصفات الطيبة من الرجولة والخلق الحسن، والتميز في كثير من جوانب الشخصية من الثقافة إلى الدأب والمثابرة وتحمل المسئولية، ودفعتها تلك الثقة إلى تسهيل الكثير من فرص الإقتراب، والتقارب، حتى إذا ما بلغ العشرين وانتقل إلى السنة النهائية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وانتقلت فاطمة من الثانوية العامة إلى الجامعة لترافقه في نفس الكلية، تطورت العلاقة إلى آفاق أرحب، فقد أصبحت فرصة التلاقي خارج الجدران متاحة بشكل يومي .. فأضيفت إلى الروابط القائمة رابطة الطريق، ذهاباً وإياباً إلى الجامعة، ورابطة الفواصل بين المحاضرات، ورابطة التتلمذ والأسئلة عما صعب عليها خلال تواجدهما في المنزل.

في ظهيرة أحد الأيام التي كانت المحاضرات تمتد خلالها من الصباح حتى المساء بفاصل ثلاثة ساعات عند الظهر، دعاها إلى جولة في وسط المدينة .. وخلالها، فاجأ فاطمة بدعوة إلى غداء في أحد المطاعم متوسطة المستوى. حاولت الإعتذار حتى لا تكبده كلفة قد تفوق إمكانه لكنه أصر، وأنهى الحوار في هذا الشأن بتفاخر:

- إيه يا فاطمة؟ إنتي بتتعاملي معايا على إني كُحِّيتي خالص؟ أنا كحيتي بس مش خالص. إنتي مش عارفة إني با أقبض مكافأة التفوق كل شهر، وإني باصرف على نفسي وإن المبلغ اللي باقبضه يخليني أقدر أعزمك على وجبة ولو مرة كل شهر؟

وأجابت في حياء بلهجة يمتزج فيها الاعتذار بالقبول والتقدير:

- إطلاقاً يا رمزي. إوعي تفكر بالشكل ده. أنابس شايفة إننا تقدر ناخد ساندويتشين يكفوا لغاية ما نروَّح، لكن لو انت شايف غير كده، يبقى ماشي وشكراً مقدماً.
- لأ شكر إيه؟ دا أنا إللي أشكرك علشان حاتديني فرصة أتكلم معاكي في موضوع مهم.
- خير إن شاء الله. كلي آذان صاغية.
- إنتي مستعجلة كده ليه؟ ما ينفعش الكلام على جوع .. الجوع بيفقد الإنسان قدرته على التركيز – ندخل ناكل، ونشرب الشاي ونتكلم على رواقة..

دخلا إلى المطعم فانتقيا من قائمة الطعام ما راق لهما، ولاحظا معاً توافق رغبتيهما، وبعد الطعام كان الشاي الذي لا تكتمل متعة أيهما قبل احتسائه، ثم اعتدل رمزي في جلسته ليلفت نظرها إلى أهمية ما هو قادم، ثم قال في جدية:

- شوفي يا فاطمة ... إحنا نعرف بعض بقالنا أكثر من أربع سنين، لكن عمرنا ما اتكلمنا عن الحب ولا جبنا سيرته من بعيد أو قريب. صح؟

لم ترد على سؤاله، وإنما خفضت رأسها، وحولت نظرها حياءًا، فاستطرد موجها إليها سؤالاً جديداً؟

- إحنا حانتكسف من أولها؟ عموماً أنا باقرر حاجة حصلت. إحنا فعلاً عمرنا ما اتكلمنا عن الحب مع إننا عايشين حالة حب من درجة عالية وحقيقية، وعلشان كدة ما احتجناش لكلام ولا أي تعبير، إحنا إحساسنا ومشاعرنا المتبادلة كانت كافية. إحنا عشنا الحب بشكل عملي، مرضي ومشبع. لكن وصلنا إلى منطقة تفرض علينا نسأل ونجاوب، السؤال: وبعدين؟ والإجابة: النهاية إللي تحط الإطار الصحيح للعلاقة، واللي يرضي عنها ربنا، ويرضى عنها المجتمع: الجواز. مظبوط يا فاطمة؟
- أنا مش عارفة إيه إللى جد انهاردة عشان نتكلم عن حاجة لسة أوانها ماجاش. يعني كلامك مظبوط، بس مش عارفة إذا كان توقيته صحيح.
- أنا ما قلتش إننا حانتجوز انهاردة، ياريت يكون ده ممكن، لكن أنا باتكلم عن مسلمات بتمثل نهاية مرحلة من مراحل الحب الطاهر المحترم، علشان نخطط لتنفيذها، وإن ما كانتش أدوات التخطيط ده متاحة، أو متاحة لكن تنفيذها حايكون على المدى الطويل، خلينا نحلم. نحلم ببيت وأولاد ... وأمان يمتد لغاية نهاية العمر.
- تعرف يا رمزي. أنا باحمد ربنا إنك بتتكلم الكلام ده بعد الأكل. مش قبله.
- إشمعنى يعنى؟ تفرق إيه؟
- لا. تفرق كتير، إنت لو كنت اتكلمت في الموضوع ده قبل الأكل، كنت حاتفتح شهيتي وكنت حاكل قد إللي كلته مرتين، وانت إللي كنت حاتدفع الضعف.

- يا شيخة خضِّيتيني. أنا بافتكرك بتتكلمي جد. طب إيه رأيك أطلب لك حاجة تاني؟
- يا راجل أنا باهزر.
- يبقى نكمل الكلام الجد. أنا فاضللي شهور واتخرج إن شاء الله. وإذا جبت التقدير إللي متوقعه، ممكن اتعين معيد، أو في وزارة الخارجية.
- إن شاء الله.
- طيب البديلين دول، رغم تميزهم إلا إنهم مرفوضين بالنسبة لي، لأن المعيد مطلوب منه الدخول فوراً في مرحلة التحضير للماجستير؛ دبلومات وتمهيدي، ورسالة، ودي مكلفة وقت وفلوس ... ووزارة الخارجية ؛ لازم ادرس في المعهد الدبلوماسي وندخل في نفس المجال زي الجامعة .. وقاطعته فاطمة باستغراب:
- وحدْ يكره بُنا مستقبله في مواقع ممتازة توفر له فرصة التميز الاجتماعي، والاقتصادي كمان؟ يعني بداية طريق الأستاذية في الجامعة أو مركز جناب السفير ؟!
- طبعاً ما يرفضش الفرصتين دول إلا واحد مجنون.
- طب وانت لا سمح الله مجنون؟
- أيوه ... زي ما فيه مجنون ليلى، لازم يكون فيه مجنون فاطمة . أنا لو مشيت في سكة من الاتنين إللي قلت عليهم مش حانقدر نتجوز قبل عشر سنين، ودا شئ لا أنا أقدر عليه، ولا أرضاه ليكي.
- طيب والبديل إللي بتفكر فيه؟
- أنا حا أبدأ من دلوقتي أراسل منصور الدباغ في البحرين، يدور لي على فرصة شغل هناك، علشان على ما يعدو الست اشهر اللي فاضلين على ما خلص الامتحان يكون لقى حاجة، أروح اشتغل ثلاث أربع سنين نتجوز

خلالهم واخدك معايا .. ولو لقينا الأمور كويسة نقعد هناك أطول مدة ممكنة بحيث نكوِّن نفسنا، ونرجع في الوضع الاجتماعي والمادي اللي نستحقه.

- لأ أنا مش موافقة على التفكير ده .. إنت لو اتوقفت عن الدراسة لأي سبب، عمرك ما حتكمل ويبقى حلم الدكتوراه اتبخر، ولو – لأي سبب – رجعت من البحرين بعد شهور ولا سنة، تبقى لا طُلت بلح الشام ولا عنب اليمن. أنا أفضل انك – لو جت لك فرصة التعيين معيد – إنك تستمر في الجامعة، وبالمرتب اللي حا تاخده نقدر نبدأ حياتنا، وسنتين تلاتة على أنا ما اخلَّص الجامعة، أشتغل أنا كمان وإيد على إيد، ربنا معانا ونحقق اللي احنا عايزينه.

فكر رمزي لحظات لا لكي يرتب أفكاره، وإنما ليرتب رده بالثبات على رأيه، ثم قال لها:

- مش أهالينا بيقولوا: مين رضي بقليله، عاش؟ وعشان كده إحنا اتولدنا، وكبرنا واحنا عايشين بالقليل؟ نحاول نعمل نقلة، ونجمع بين الحسنيين؛ العلم والمال .. عموماً، لسة بدري. خلينا نركز الشهور الجاية على الدراسة، وبعدها، يحللها ربنا.
- ونعم بالله .. ودلوقتي ياللا نقوم .. على ما نوصل الجامعة يكون فاضل نص ساعة ولا حاجة على ما تبدأ المحاضرات.

غادرا المطعم، واتجها إلى الجامعة حيث وصلاها في الوقت المناسب، وتلقى كل منهما المحاضرات الخاصة بالعام الدراسي الخاص به ثم أوصلها لمنزلها قبل أن يعود هو لمنزله، فيستذكر – كعادته ساعات يتناول خلالها عشاءه، ثم ينام راضيا عن يومه؛ محاضرات، ولقاء مع الحبيبة، ومذاكرة ومراجعة لما تلقى في يومه.

مرت الشهور نمطية فيما تحمله أيامها، لكنها غير مملة حيث يختلف ترتيب الوقائع، وأيا ما كانت فقد حوت في كل يوم لقاءاً مع فاطمة، تتبدل صورته، فمرة

من خلال زيارتها لشقيقته، ومرة في مرافقته إلى الجامعة، وأخرى في لقاء خارجها .. وتطور الحب.

مضت شهور، وأدى كل من رمزي وفاطمة الامتحانات بدرجة من الرضا، وتوقع التفوق، وفي آخر أيام الامتحان، وخلال عودة رمزي إلى البيت، التقى صدفة بصديقه منصور يسير أمامه، فربت على كتفه مداعبا:

- إنت يا أخ .. رايح فين؟

واستدار منصور ليجد رمزي فيعانقه في شوق:

- سبحان الله .. أنا رايح لك يا رمزي .. إنت مراقبني ولا إيه؟

ويضحك الصديقان ويستمران في السير إلى بيت رمزي حيث تستقبلهما الأم بالترحاب الشديد بمنصور، واللهفة الشديدة على الاطمئنان على أداء رمزي في آخر أيام الامتحان، فرد منصور تحيتها بأحسن منها وعبر عن شوقه لمصر وكل أهلها وخاصة الأهل والأحبة .. وطمأنها رمزي على ختام أدائه لمراحل تعليمه:

- إطمئني يا ماما .. الحمد لله .. خلصنا واجبنا على خير .. والنتيجة إن شاء الله طيبة، مش ناقص غير كبايتين شاي من اللي وحش منصور، وحا أَقَعَّده كمان في البلكونة اللي كان بيجيني زمان عشان يقعد فيها .. واصطحب صديقه إلى البلكونة الفسيحة المطلة على الشارع الذي لا تهدأ حركته إلا بعد انتصاف الليل وتبادلا أخبار حياتهما، حتى استوقف منصور صديقه رمزي متسائلاً في دهشة:

- قوللي بقى إيه حكاية الشغل اللي انت عايزني أدور لك عليه من قبل النتيجة ما تظهر؟

فقص عليه حكايته مع فاطمة، ورغبته في الزواج منها، وأن تكاليف الزواج ينبغي ألا تقتطع كثيراً أو قليلاً من معاش والده الذي يكفى بالكاد متطلبات والدته

وشقيقته التي تتبقى أمامها سنوات ثلاث حتى تحصل على البكالوريوس، وخاصة أن مكافأة التفوق التي استمر اعتماده عليها لأربعة سنوات – حتى في ظل حياة والده الراحل – سيتوقف صرفها مع التخرج ...

أخرج منصور قصاصة من جريدة بحرينية، وقدمها إلى رمزي بينما قال له:

– دا إعلان شركة سعودية عن طلب وظايف كثيرة شوف لو يناسبك حاجة منها، لأني حاولت ألاقي فرصة في البحرين وفشلت .. وعموماً أنا لما أرجع بعد الأجازة أبدأ أشوف وظيفة تناسب المؤهل اللي حاتكون النتيجة بانت وحصلت عليه.

ثم توقف عن الحديث برهة وحول مساره لكي يسأل رمزي:

– صحيح إيه الشوطة اللي جت لكم كلكم بطلب وظايف قبل التخرج دي؟ تسدق إن سامح المفعوص اللي لسة في إعدادي طب بعت لي جواب زي اللي انت بعتهولي طالب وظيفة بالثانوية العامة. واحد في كلية الطب عايز يسيبها ويروح يشتغل بمؤهل متوسط؟

وتساءل رمزي في دهشة وشعور بالمفاجأة:

– سامح ابن خالتي؟

– أمال ابن خالتي أنا؟

– لأ أصله ما قلليش ولا جاب لي سيرة.

ثم ضحك حتى انهمرت الدموع من عينيه، وتعجب منصور من ضحك لم ير له سببا، وتساءل في حنق:

– إيه اللي بيضحَّك للدرجة دي من واحد مهفوف ومخه طاير عايز يسيب دراسة في كلية القمة ويسافر يشتغل؟

اعتذر رمزي عن ضحكه في موقف يستوجب البكاء، وكست ملامحه جدية مفاجئة وقال بنبرة حزينة:

- إنت صحيح مسافر وما عرفتش اللي حصل له؟

إنزعج منصور وشابه قلق من تعليق رمزي فسأله في لهفة:

- خير يا رمزي. إيه اللي حصل له وخلاَّه يعمل كده صحيح؟
- إنت عارف إن والد سامح مفقود من ساعة غرق الباخرة المشئومة، ولا قدرنا نستدل على أي معلومة عنه، ولا أمكن التعرف على جثته من ضمن الجثث اللي إنتشلتها سفن الإنقاذ ساعتها.
- وإيه علاقة الموضوع ده با للي بنقوله؟ والموضوع مضى عليه أكتر من أربع خمس سنين!
- صبرك عليَّ يا منصور، داهو دا الموضوع.
- إزاي؟
- سامح حضر محاضرة أو Round لتشريح جثة ودا طبعا موضوع عادي ومتكرر في كلية الطب .. بس اللي حصل إنه بعد الأستاذ ما اتكلم شوية في شرح للتدريب العملي في عملية التشريح ومعناها .. والهدف منها ... إلخ. رفع الملاية اللي كانت مغطية الجثة على الترابيزة والطلبة حواليها، وكان سامح واقف في الصف الثاني، وبص على الجثة من بين الزميلين اللي واقفين قدامه .. وفجأة جت له نوبة هستيرية ودموع ... ونحيب .. وتشنجات، ووقع على الأرض. حصل قلق، وحاول الزملا يفوقوه؛ طالبة شممته بارفان، وزميل رش على وشه ميَّه، وطالب تاني قعد يضربه على خدوده .... والدكتور قال لهم؛ حد يضغط على مناخيره ما بين عينيه .. المهم فاق، وأول ما رجع له الوعي سأله الدكتور عن سبب خوفه وذعره الشديد قبل ما تبدأ عملية التشريح .. واتعجب إزاي حا يبقي جراح يمسك المشرط، ويعمل عمليات لمرضى أحياء؟

وكانت المفاجأة أغرب من الخيال ...

وأثار الحكى فضول منصور فتعجل معرفة الخاتمة وتساءل في شغف:

- إيه يعني؟ إيه اللي ممكن يكون سبب له الإغماء؟
- سامح فاجئ الجميع، وقال لهم وهو بيبكي وبصوت كله حزن وجزع: "الجثة دي جثة أبويا!"

صعق منصور من المفاجأة وسأل رمزي:

- وهي ممكن الجثة تكون متماسكة وبحالتها بعد السنين اللي مرت؟
- ما هو دا اللي قعد سامح ييجي شهر يدور على إجابته، وعرف من التحقيقات إن والده مات بعد الحادثة في ظروف غامضة خلت النيابة تحفظ التحقيق، لأنه لم يستدل على شخصيته، ولا وجد أي دليل على أن سبب الوفاة جنائي.

عرفت إيه اللي عقَّد سامح من كلية الطب، وخلاه يسيب الدراسة فيها، ويطلب منك – زي ما قلت لي – إنك تدور له على شغل؟

- حقيقي الحياة فيها مآسي وآلام بتتجدد، لكن كمان نعمة النسيان بتدينا القدرة على مواصلة الحياة .. قوم بينا نروح لسامح نطيب خاطره ونحاول نخفف عنه، ونوريه صورة الإعلان يمكن يقدم معاك .. والله المستعان، يكتب له الخير إن شاء.

(2)

على مقعدين متجاورين في الطائرة القادمة من المملكة السعودية إلى مصر، جلس رمزي وسامح صامتين حتى أقلعت وارتفعت في الجو، ونظر سامح إلى يمينه ليرى رمزي وقد شردت عيناه إلى فضاء لا متناه رغم كل ما يحيط به داخل الطائرة وتوجه إليه بسؤال يكاد يوقن جوابه:

- وصلت فين يا رمزي؟ إيه السرحان الطويل، البعيد داكله؟

- سبقت الطيارة ووصلت مصر وسلمت على العيلة، ورحت بعد فترة قصيرة مع ماما وعزيزة، قابلنا فاطمة وحكيت لها اللي جرى واتفقنا على الجواز بعد أسبوع؟
- وصدَّقِت؟ إوعى تقوللي إنها صدقت، لأن مفيش حد عاقل يصدق اللي جرى ولا يقول إنك راجع بعد ست اشهر، وجاررني معاك زي الشوال وكأني أنا اللي ربحت المليون؟
- إخص عليك يا سامح .. أنا مش اتفقت معاك إننا حانشتغل في مصر وإنك معايا، وإنك حا تاخد مرتب قد اللي كنت بتاخده في السعودية مرتين؟
- حصل .. بس أنا بصراحة رغم إني كنت معاك وشفت وسمعت اللي حصل لسه مش مصدق.
- الحمد لله .. والشكر لله، وأنا كمان لو كنت باحلم ماكنتش قدرت أوصل بالحلم للي حصل.
- ويا ترى فاطمة حا تصدقني أنا لما أشهد معاك؟
- ساعات ونعرف .. ويارب ما تفتكرش إنى سرقت ولا نهبت زي مرات مرزوق العتَقي في تمثيلية قِسَمْ.

ضحكا .. وساهمت المضيفة في تمضية الوقت بتقديم وجبة الغذاء، وتلاها مشروب، وبعدها استمرار للدردشة حتى أعلن عن طلب التزام الركاب بربط الأحزمة، ثم لامست عجلات الطائرة أرض المطار، وانتهت الإجراءات قبل أن يستقلا سيارة ليموزين أوصلت كل منهما إلى بيته، فكان العناق وكانت الأشواق، ثم كان سؤال مشوب بالقلق من والدته:

- خير يا رمزي؟ مشُّوك ليه؟ عموماً ولا يهمك الرزق موصول ورب هنا، رب هناك. إنت حاتنورنا ونبقي مطَّمنين عليك وانت فى وسطنا، ويمكن ربنا عمل كدة عشان تكمل دراستك وتتوصل للي إنت تستحقه.

- قلبك فيه الخير يا ماما .. ودعواتك ليه حققت أكتر من اللي كنت با تخيل إني أحققه .. أنا حا أوصل مشوار وارجع أحكي لك الحكاية من طقطق لسلامو عليكم ...

واستوقفته الأم في وجل:

- استنى يا رمزي إنت رايح فين؟
- حا اوصل لغاية فاطمة أبشرها واطمنها، ونتفق على شوية تفاصيل ...

تدخلت عزيزة لتعفي والدتها من عنت ما أرادت إخباره به كارهة:

- ما تنزلش يا رمزي، وانسى فاطمة، خيرها في غيرها ... وألف واحدة تتمناك.
- خير يا عزيزة، وفاطمة ما لها؟ وانساها ليه؟
- أنا مش حاعمل مقدمات وألف وأدور. انتم لسة على البر، وأنا عارفة إنك زكي ودماغك كبير ... فاطمة واضح انها استطولت المشوار ولقت إنها مش حاتقدر تنتظرك سنين ... وجالها عريس كويس على ما يبدو فما ضيعتش الفرصة. واتجوزت بصورة مفاجئة وغامضة ولا حد عرف أي تفاصيل عنها، إلا لما رحت أسأل عنها واطمن عن سبب انقطاعها عن الكلية، فأمها قالت لي باختصار إنها اتجوزت وسافرت مع جوزها "برَّة" – حتى ما قالتليش بره فين ...

وأنا جيت وقلت لماما، واتفقنا إننا نبلغك على مراحل في كل جواب بس إنت فاجئتنا بمجيك ..

ساد رمزي وجوم .. وحزن، وتساءل فى نفسه:

"أي عجلة تلك؟! أنا لم يمر على سفري إلا عدة شهور ... "

ران الصمت، واجتاح القلق والجزع قلب الأم فواسته وحاولت تهدئة خاطره، بمهاجمة الصمت وفرض الحديث، فليس أخطر على المصدوم من صمت لحظات

ما بعد الصدمة، فتساءلت الأم في ابتسامة مصطنعة تتخطى بها الوجوم المسيطر؟

- ماقلتش إيه اللي حصل، وقطعت الشغل وجيت فجأة؟ ما تقولش أجازة بعد خمس شهور! وأجاب رمزي في حزن:
- أنا سافرت يا ماما طمعان في ألفين .. تلات آلاف ريال في الشهر، أحوش نصهم، وارجع بعد سنتين تلاتة بميت ألف جنيه أبدأ بيهم. ولما سافرت، لقيت الحسبة برضه مش كافية، واضطريت أقسو على نفسي، وأقعد في شقة مشتركة مع سامح وثلاثة مصريين اتعرفنا عليهم ... وكنا بنحاول نوفر في كل حاجة؛ في الأكل ... في مصروف الجيب ... في الفسحة ...

وفي يوم واحد زميلي في الشغل عتب عليَّ علشان باروح الشغل في المواصلات، وكل الناس راكبين عربيات، ضحكت وقلت له: "أنا جاي اوفر قرشين اتجوز بيهم حاتقوللي اشترى عربية يعني يبقى عليَّ دين باللي حا اشتغل بيه لغاية ما أرجع؟!".

وضحك زميلي وفهمني إني ممكن اشترى عربية بألفين ريال أستعملها طول ما أنا في المملكة، ولما آجي أرجع أبيعها مستعملة زي ما اشتريتها، وبرضه بألفين ريال ولا أقل شوية .. المهم إنه قعد يتكلم معايا يوم ... اتنين ... تلاتة، حتى لما قلت له إني معايا مبلغ أقل ... قال لي إنه ممكن ييجي معايا ولو فرقت كام ميت ريال ممكن يسلفني لحين ميسرة .. ووافقت وانتظرت اليوم المناسب لغاية ما في يوم لقيته بيقول لي:

- بكره الصبح يا بطل حانروح سوا على سوق السيارات المستعملة، حانلاقي أنواع وماركات، وبأسعار تناسب أي حد، وأنا معاك وسدَّاد لو فرقت زي ما قلت لك.

ورحنا مع بعض ودخلنا السوق، لقينا عربية فخمة.. حاجة كده ملوكي. طبعاً طموحي ما راحش ناحيتها ولا قرب منها، ومشينا في طريقنا، وقبل ما نعدي المكان سمعنا واحد بيقول "واحد ونص"، ورد عليه واحد تاني: "اتين إلا ربع" ولقيت زميلي بيشدني يرجعني ووقفنا بين الفريقين اللي واقفين، وزغدني وقال لي باستعجال "قول اتنين بسرعة"، وما كانش عندي وقت ولا فرصة أراجع الكلام، ولقيتني من غير تفكير بأكرر إللي قاله: وقلت بصوت عالي: "اثنين".

- كويس يا حبيبي، فرصة، وبعدين؟
- لا كويس ولا حاجة. القيامة قامت، وكأن كلمة اثنين دي شتيمة أبيحة، لقيت الجو اتكهرب، والدنيا بقت آخرة، وراح واحد شاددني من دراعي، وقال لي بلهجة فيها تعالى وأمر: "إنت مين؟" جمعت شجاعتي ورديت عليه: "وانت مالك"؟ واتعقدت المشكلة ولقيت الكل بيبص لي بتحدى مخيف، وواحد فيه وقار وواضح من لبسه وهيئته إنه أمير أو مليونير كبير بينده لي بهدوء وثقة، ولما قربت منه لقيته بيقرب من ودني وقال لي بلهجة حاسمة وما فيهاش اختيار:
- **حاندفع لك نص وتنصرف فورا ....**

واترددت لحظة وبعدين قلت لنفسي: خمسميت ريال مرتب أسبوع، وأنا لسة ما عملتش حاجة، ولا ضيعت وقت، دا أنا لو جيت كل أسبوع وطلعت بخمسميت ريال في عشر دقايق، يبقى مرتب تاني، فوافقت، وهو شاور للراجل اللي كلمني في الأول واللي تقريباً سكرتيرُه؛ "إكتب له شيك بالمبلغ"، وقبل ما اطلب منه يديني الفلوس كاش للضمان، كان السكرتير فتح شنطة سامسونايت طلع منها دفتر شيكات وكتب الشيك بسرعة وحط الدفتر فوق الشنطة وقدمهم للأمير اللي طلع قلم دهب من جيب الجلابية ومضى الشيك وطلب منى بلهجة فيها أمر مش طلب – تروح البنك حالاً تصرف المبلغ وما أشوفكش تاني.

وماكنتش مستني يقول لي حالاً، لأني أنا اللي كنت مستعجل أروح البنك، علشان لو فيه مشكلة ألحق أرجع تاني قبل ما يمشو، ولا كنت ناوي أشوفه تاني أو يشوفني بعد المصلحة ما تنقضي.

وفي البنك قدمت الشيك ومعاه إثبات الشخصية لموظف الشباك، وقلقت جداً لما لقيته عمال يبص في الشيك ويبص في وشي، ويكرر الحكاية دي كام مرة. قبل ما يسألني: "إنت اللي اسمك على الشيك؟" قلت له معاك "إثبات الشخصية. تحب اثبت لك إزاي؟" قال "مين اللي كتب لك الشيك ده؟" قلت له: "اللي اسمه مطبوع على الشيك". وطلب مني انتظر ودخل بعيد عن الشباك واتفاجئت باثنين من الشرطة محاوطيني ومعايا صاحبي واحنا مذهولين ومش فاهمين حاجة.

سألني الشرطي: "مين اداك الشيك؟ وهو فين دلوقت؟" جاوبته فقال لي تعالى معانا، وركبت معاهم سيارة الشرطة ورجعنا للشخص اللي اداني الشيك. لقيناه لسة واقف ومعاه الفريقين؛ اللي معاه، واللي واقفين قدامهم، وأول ما شافني قال لي بصوت عالي: "انت تاني؟" وما اتكلمتش عشان الشرطي سأله: "سموك كتبت الشيك ده؟" وعرض عليه الشيك فرد عليه بضيق وعصبية: "أيوه. روحوا اصرفوا له خلِّيه يمشي وما شوفوش تاني .. " وعدنا للبنك، وسألني الصراف عن الشنطة اللي ح اصرف فيها الريالات وضحكت واستغربت من المولد اللي اتعمل علشان الخمسميت ريال اللي حاخدهم، وطلبت منه يجيب الفلوس ومالوش دعوة حاحطهم فين واستغرب الصراف وسألني "انت جاي تصرف نص مليون ريال، من غير ما يكون معاك شنطة؟" وسألت الصراف باستغراب:

- كام؟

ولقيته بيكرر الرقم وهو مستغرب إني حاصرف مبلغ مش عارفه. ودخل جاب شنطة بلاستيك من عنده وعد الفلوس وحطها في الشنطة واداها لي وطلب منى أراجع المبلغ. أنا طبعاً ماكنتش في الحالة اللي تخليني أعد ولا أراجع، بس

خفت يكون في غلط أتحاسب عليه، فرجعت تالت مرة للسوق، ولقيت السكرتير مقابلني قبل ما أوصل للأمير بكام خطوة وبيسألني عن سبب رجوعي، ولما جاوبته ضحك وقال لي الفلوس دي فلوسك، ولما سألته بمناسبة إيه؟ قال لي الفريقين اللي قدامك دول بيمثلوا عائلتين من أكبر عائلات المملكة، وفيه خلاف على قطعة أرض كبيرة بين أرض العائلتين، فاتفقوا إن طرف منهم يعوض الطرف الثاني بنص قيمة الأرض ويضمها لأرضه، وأثناء المزاد دخلت انت وعليت السعر، وطبعا انت مش وش مليونير يزايد ويرفع السعر لمليونين، لكن حصل شك تكون انت وسيط لعيلة تالتة جيت تزايد وتشترى الأرض فتزيد المشكلة وبدلا ما يكونوا عائلتين يصبحوا تلاتة، ولما فهمنا من تصرفاتك إنك مش طرف ولا لك في الطور ولا في الطحين، كبير العيلة، قال: "أنا خلاص قلت ياخد نص مليون، ومش حا ارجع في كلامي. دا رزقه. بس أنا عايز أفهم هو إيه اللي دخله، وكان عايز إيه؟".

وضحكت وقلت له: أنا كنت جاي اشتري سيارة مستعملة، وافتكرت إنكم بتزايدوا على العربية الفخمة اللي واقفة. وقلت دي فرصة العمر عربية تسوي ميت ألف ولا أكثر آخدها بألفين ريال.

إتعجب الراجل من سذاجتي وقال لي ببساطة شديدة؛ إن العربية باثنين مليون ريال.

رجعت السكن، جمعت حاجاتي في شنطتي، وقدمت استقالة من العمل، وحجزت أنا وسامح في أول طيارة بعد ما فتحت حساب في البنك وحطيت الفلوس اللي نزلت على من السما في الحساب واديني قدامكم ...

صاحت الأم بفرحة غامرة:

– ملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب .. الحمد لله، وحمداً لله على سلامتك يا حبيبي.

علا الكبرياء .. وسادت رمزي موجة شديدة من الاستياء، ثم طغى على مشاعره مُسكن شديد المفعول: "تعجلت فتزوجت ممن رأته أكثر مني ثراءاً ... وأنا الآن الأكثر غني واستغناءاً بإذن الله فلأحاول النسيان يساعدني عليه غدر من خانت، وستكون لي أفضل عروس في المدينة".

تذرع رمزي بالصبر، شغلته لقاءات ومناقشات حول المشروعات التي ينبغي عليه الإسراع بإنشائها، قبل أن تتبخر الآلاف ويمتصها {إسفنج} الحاجة الطويلة التي دفعته للسفر والغربة ...

تردد رمزي على العديد من إدارات الاستثمار بالبنوك، واتصل ببعض رجال الأعمال ذوي السمعة الطيبة وتحرى الحلال في استثماراتهم، واستشار كثيراً من الأهل والأصدقاء حول مجالات العمل المربح والذي يحتاج إلى عمالة كثيفة حتى يخدم أكبر عدد ممكن من الشباب بتوفير فرص العمل لهم.

وفي زيارة لأحد رؤساء الشركات، عرض رمزي موقفه المالي وسأل رئيس الشركة عن كيفية التعاون على ضوء وضع الشركة المالي والقانوني، وقدم له الرئيس جريدة سبق صدورها منذ شهرين قائلاً:

- إحنا تطبيقا للقانون نشرنا ميزانية الشركة عن السنة اللي انتهت في الجريدة دي. إنت راجل محاسب، خد الجريدة وادرس الميزانية كويس، شوف نتائج الأعمال، وصافي الربح، والاحتياطيات، وكل اللي يهمك تشوفه وبعدها اتصل بي عشان نتفق على ميعاد نكمل كلامنا ...

وفي البيت فتح رمزي الجريدة، وأخذ يتصفح صفحاتها، وصولاً إلى الميزانية المنشورة على أحد هذه الصفحات، وتسمر في مكانه، وثبت نظره على صورة في صفحة الحوادث تكاد تكون هي صورة فاطمة، فاستوقفته لكي يقرأ الخبر المنشور أسفلها. فإذا اسمها كاملاً مقترنا بخبر احتراق وجهها وتغير ملامحها نتيجة لانفجار موقد كيروسين كانت تحاول إشعاله .. فطوى الجريدة بسرعة، وانطلق إلى منزل

فاطمة، وحين فتح والدها الباب ورأى رمزي، فوجئ وارتبك، وتلعثم حين تردد بين الترحيب به، وبين مواربة الباب إظهارا لعدم الترحيب بدخوله، فبادره رمزي بسؤال مختصر وحاسم:

- **فين فاطمة يا عمي؟**

لم يجب الرجل، وأجابت عنه دمعة غلبت تماسكه، وأكدت لرمزي صحة ما قرأ في الجريدة فعاد يسأل الرجل:

- هي فاطمة اتعرضت لحادثة يا عمي؟ أنا شفت التفاصيل في الجريدة دي ....

وأسقط في يد الرجل، فلم تعد أمامه فرصة للإنكار فدعا رمزي للدخول بينما فتح قدراً أكبر من فراغ الباب:

- اتفضل يا ابني أنا حا اقولك على اللي حصل ...

ودخل رمزي مع الرجل حيث جلسا على كنبة بلدي في مدخل الشقة وبدأ الرجل روايته:

- زي ما الجرايد كتبت؛ فاطمة كانت بتولع بابور الجاز، والظاهر إنها زودت ضغط الكباس، المهم إنه انفجر، ومسكت النار في شعرها ووشها، وطلبنا الإسعاف، ونقلناها للمستشفى، وقالوا لنا أن الحريق من الدرجة الثانية، وخطورته في إنه كان في الرأس والوش، وحمدنا ربنا لما قالوا لنا، إن فرق دقيقة زيادة كانت ممكن تفقد البصر.

بعد عشر أيام خرجت من المستشفى، ولما جت البيت – وأول مابصت في المرايه – صرخت، وأول كلمة قالتها: "إوعوا رمزي يعرف با للي جرى" وطلبت مننا نفكر في كلام نوصله لوالدتك واختك يخليك ما تفكرش تتصل بها ... وبعد شوية، قالت لنا: "يا ريت لو سألوا عني تقولو لهم إني اتجوزت، لأن دا الكلام اللي لو وصل رمزي حا يكرهني وما يفكرش يسأل ولا يعرف حاجة تانية".

سكت رمزي برهة ثم توجه بسؤال إلى والد فاطمة:

- لما حصل اللي حصل لفاطمة ووشها اتشوه، فكرت تتخلى عنها يا عمي؟

وتعجب الرجل من السؤال ورد بسؤال آخر:

- دي بنتي. هو ممكن اتخلى عن بنتي لو حصللَّها مهما حصل، ولاَّ دا يخليني أقرب منها أكتر، ويضاعف مسئوليتي ناحيتها؟
- أهو هو دا. أنا وفاطمة كنا متفقين على الجواز .. كانت روحها هي اللي قربتني منها. مش جمال وشها ... يبقى لما تتعرض لحاجة زي اللي حصلت أتخلى عنها؟ وبعدين؛ مش كان ممكن يحصل لها اللي حصل بعد الجواز؟ كنت ساعتها حا أطلقها؟

ثم توقف عن الحديث لحظة غير فيها نبرته:

يا عمي أنا طالب إيد فاطمة. ومش حا اتراجع عن طلبي.

فوجئ الرجل بما اعتبره قدراً غير متكرر من الشهامة والرجولة، وأراد كسب بعض الوقت قبل الرد بالإيجاب أو الاعتذار، فقال لرمزي:

- إن كان علىَّ أنا ... أنا موافق من غير تردد. لكن الشرع بيفرض علىَّ آخذ رأيها ...
- أكيد يا عمي، بس أنا حا اتجوز فاطمة مهما قالت أي أعذار، ولو سمحت خليها تيجي وتقول أي كلام في مواجهتي.

نهض الرجل، ودخل إلى غرفة فاطمة، فترامى إلى سمع رمزي صوت نقاش وجدل محتد بين الرجل وابنته ولم يتبين صوت أيهما بوضوح وإنما التقط عبارة قالتها الأم بصوت مرتفع "يا بنتي ربنا يهديكي أومي شوف الجدع واتكلمي معاه. دا شاريكي وطالبك للجواز بعد ما عرف اللي حصل" ....

انتهى الحوار، وهدأت الأصوات قبل أن تتلاشى، وقبل أن يخرج الثلاثة إلى حيث كان رمزي جالساً، وفوجئ بحبيبته منتقبة في سواد، فرحب بها، وهدَّأ من روعها، فسألته:

- تقدر تبص في وشي قبل ما تصمم على جوازنا. أنا باعفيك من الشهامة الزيادة اللي حاتبتليك بواحدة دميمة تندم كل ما تصطبح أو تتمسى بوشها ..

وكشفت عن وجهها، فرأى جلده وقد انكمش في جانب، وتهدل في جانب آخر، وتغيرت معالمه، ولم ينج ملمح في وجهها من قسوة الحريق، سوى العينين فواساها في لهجة تبعد ذهنها عن ذلك المعنى:

- لسة جميلة يا فاطمة وعينيكي لسة هما ... وشوية الكرمشة اللي حصلت حا اسافر أنا وإنتي ألمانيا، وعندهم طرق علاجية زي السحر، وحاترجعي زي ماكنتي وأحسن إن شاء الله.

ثم حول الحديث إلى والدها قائلاً:

- ممكن يا عمي نقرا الفاتحة دلوقت وبالشروط التي تقولها فاطمة؟

فا استوقفته فاطمة باكية:

- استنى يا رمزي. راجع نفسك. حاتقدر تعيش مع واحدة وانت مش قادر تبص في خلقتها؟ يا رمزي أنا نفسي مابقيتش قادرة أبص في المراية.
- بطلي كلام فارغ. أنا عارف با أقول إيه، وأنا مش مستني إن عمي يسألك عن رأيك، لأنى عارفه كويس، إنتي بتعملي اللي عليكي وبتخلى مسئوليتك، بلاش نضيع وقتنا، وارفع إيديك يا عمي نقرأ الفاتحة، ومعانا الوالدة العزيزة، وفاطمة اللي حاتكون بإذن الله – مراتي لآخر العمر.

غمرت الفرحة الوالدين، وانتفض قلب فاطمة بغير ما حاولت إبداءه من امتناع أو تمنع، وقرأ الجميع الفاتحة.

واتفقوا على التفاصيل، وخلال أيام كل كان شيء قد تم، وصممت فاطمة أن تزف إليه بالنقاب حتى لا تثير استمئزاز أحد من أهله، وهم فقط – مع أهلها – من حضروا الزفاف.

سافر العروسان لقضاء شهر العسل في ألمانيا، وتواصلت فاطمة مع أهلها ومع شقيقته عزيزة تطمئنهم على سعادتها، وعلى تطور العلاج، حيث أجريت لها أربعة عمليات للتجميل، أزالت الأولى كثيراً من قبح تشكيل الجلد، وكانت الثانية ترقيعاً لبعض المناطق التي كانت تحتاج لذلك، وكانت الثالثة والرابعة شداً للجلد وإعادته إلى نضارته، وأعيد الوجه إلى مايقارب ما كان عليه، وأصبحت قادرة على كشف وجهها أمام الغير ...

وحين سألته عن مصدر تلك الأموال التي أنفقها على علاجها قص عليها قصته فسعدت أن رزقه الله بما يمكنه من علاجها بالتزامن مع ابتلائه لها بالحريق ... وعاد العروسان ترفرف عليهما السعادة والرضا، ولاحظت عزيزة أثاراً خفيفة للحريق على وجه فاطمة، فلم تكن قد رأت ما فعله الحريق بوجهها حتى في يوم الزفاف فعلقت على ذلك مقرظة لفاطمة:

- إنتي طول عمرك بتهولي يا فاطمة. أنا لما سمعت عن الحادثة .. وشفتك متنقبة حتى في الفرح، قلت دا أكيد ملامحك اتلخبطت، وطلعت الحكاية لسعة ولا شوية صهد من النار ..

وضحك الزوجان واطمأنا إلى اكتمال الشفاء لأن صديقة العمر لم تر في الامر ما كان يستأهل كل ذلك القلق والتواري عن أعين الجميع حتى هي ...

****

درب العاقليـــن

(1)

في القلب تماماً من القاهرة التاريخية؛ قاهرة المعز، إلى جوار سوق خضروات العتبة العتيق ذو الجمالون الحديدي الجبار، وخلف سينما أوليمبيا – إحدى أقدم دور العرض السينمائي في القاهرة {ومصر} – التي تقع في أول شارع عبد العزيز ناحية ميدان العتبة الخضراء بمعالمها؛ قسم شرطة الموسكي، ومطافئ العتبة، وبوستة العتبة، وفي ظهيرة أرض شريف بأحدث دور السينما الصيفية الراقية؛ الكرنك، وبارادي مواجهة لمحلات عمر أفندي الرئيسية؛ كان ذلك الدرب العجيب متفرعاً من درب المناصرة، فجمع بين القديم والأقدم والحديث في سيمفونية متناغمة صنعت منه نموذجاً فريداً وغير متكرر...

كان ساكنوه عائلة كبيرة تتفرع منها مجموعة من الأسر، أو قبيلة إنبثقت منها عدة عائلات، مختلفة في كل شيء، لكن ذلك الاختلاف كان يذوب – بل يتلاشى – نتيجة للعلاقة التي اعتادوها، ثم اتخذوا منها نهجاً، فرضه التعدد بل الميراث ... كان صوت الحريم عالياً على الدوام في قحة يفترض استهجانها، فالألفاظ، وإشارات اليد والجسد صادمة ومستنكرة لكن ما كان يخفف من وقعها الصادم، إحساس غريب بطيبة القلوب، ونقاء السرائر وكأن هؤلاء النسوة لم يكنَّ يعلمن أن تعبيراتهن قبيحة، وأنها خارجة ومرفوضة من كل الناس خارج هذا الدرب، بل وأن القانون يجرمها ويعاقب عليها ... فقط لم يكنَّ يفرقن بين الصراحة والوقاحة.

كان لهم قانونهم الخاص، وكانت لهم حياتهم التي لا تشابه حياة الآخرين، أخذوا من الحضر تحرره، وألمعيته وانفتاحه، واقتبسوا من الريف شهامته والتوحد في كل الظروف، وعلى الأخص في الشدائد، تجسد ذلك يوم دهس الترام في ميدان العتبة طاهر بن رمضان العربجي، حيث انتقل الدرب؛ رجاله ونساؤه، شبابه وحتى أطفاله إلى مستشفى القصر العيني، ولم يغادروه، حتى استخرجوا تصريح الدفن،

وقطع سيد أبالة المسافة إلى مدافن باب الفتح عدواً، ففتح مدفن الشيخ المحمدي إمام مسجدهم بينما رافق آخرون الجثمان إلى الحي حيث أصر رمضان على الصلاة على ابنه المتوفى في المسجد الموجود بالدرب، وحضر الصلاة كل الرجال، وفي مصلى الحريم كانت كل النساء وتطوعت مرزوقة "المعدِّدة" بتعديد مناقب الراحل بأسلوبها المهيج للنساء والباعث على انتزاع الدموع من عيونهن، وعلا النحيب، والصراخ في كونشرتو متناسق الأداء بين المعددة وباقي النسوة، وصمم الرجال على حمل النعش من الدرب عبر ميدان العتبة، وشارع الأزهر بطوله ثم يسارا إلى مدافن باب النصر، ورفضوا أن تحمل عربة نقل الموتى جثمان فقيدهم بينما أعناقهم وأكتافهم موجودة وقادرة على الوفاء بالمهمة.

امتلأ حوش المنزل الذي يسكن رمضان إحدى غرفه بصواني الطعام التي فاضت على طاقة المعزِّين، وجلس مندوب من كل اسرة أرسلت صينية طعام إلى تلك الصينية ليدعو مجموعة منهم لتناوله، ولا يدعهم يعتذرون أو أن يأكلوا على سبيل المجاملة، أو أن يغادروا قبل أن يملأوا بطونهم، وفي الطرف البعيد من الحوش المتسع الفسيح، جلس النساء على أكلمة أحضرنها من منازلهن في حلقات، يستمعن إلى عبارات المعددة المسجوعة، فتستدر الدموع والصراخ وتُسمع أصوات للطم الخدود .. واستمر المشهد ثلاثة أيام بلياليها دون توقف.

وحين أعلنت أم أسعد عن نيتها لتزويج ابنتها بهيجة بعد وفاة طاهر بثلاثة أسابيع، تلقت من الشتائم ما يكفي ليكوِّن موسوعة، بل دُفع بعض الأطفال لكي يلقون شباك مسكنها في الدور الثاني للبيت المجاور لبيت رمضان بالحجارة، فتراجعت، وأجلت الزفاف إلى ما بعد الأربعين، فحضر الجميع رجالاً، ونساءاً، وتبرع عبد الكريم بائع الكسكسي بتقديم طبق الكسكسي والسكر المطحون لكل من حضر الزفاف، وقام رمضان العربجي بتحميل جهاز العروسة على عربته الكارو، ومع الجهاز عشرة من الأسرة والجيران ومعهن الطُّبل والدفوف ليقطعوا شارع محمد

على حتى ميدان باب الخلق ثم يدور يميناً إلى شارع حسن الأكبر، ثم يميناً إلى شارع عبد العزيز فميدان العتبة إلى شارع فاروق وصولاً إلى بيت الزوجية في باب الشعرية، ذلك من باب النقوط، الذي إنهال مثله نقداً من السكان على فرقة العوالم التي أحيت الليلة في الدرب، وتدلت لمبات الإضاءة [الكهارب] من كل الشبابيك والتراسينات، شارك الجميع في الغناء والرقص حتى الصباح التالي ....

إعتادت نساء الدرب اللاتي يتأخر حملهن، بصحبة مجموعة مرافقة لهن من النساء الأكبر سناً، أن يستأجرن عربة رمضان الكارو فيعتلينها متربعات على أرضيتها ويخفضن ملاياتهن اللف حيث تلتف حول الوسط، ويبقى البرقع رمزاً وحيداً على الحشمة، فتقطع العربة بهن طريقاً طويلاً وصعباً إلى مصر العتيقة [القديمة] فيصعدن جبل الجيوشي حتى يصلن إلى "سيدي المغاوري" وإلى جواره مغارة مظلمة، فيدخلن إليها – دون الرجال – فيفرشن ملاياتهن على أرضها، ويتمرغن عليها مع دعوات بأن يستجيب الله لدعواتهن ... وخلال الطريق ذهاباً وعودة، كان رمضان يمازحهن، ولم يمانعن من بعض الألفاظ الخارجة التي كن يرُدَّنها بأقبح منها ...

لاقت هذه المداعبات التي رأت فيها بعضهن خفة دم رمضان استعذاباً، ووقعت موقعاً خاصاً عند أم سمعة التي كانت تستعذب التحرشات اللفظية، والنكات الخارجة، وكانت تبادل رمضان النكتة بأخرى على منوالها في سرعة بديهة، وكانت رفيقاتها يستنكرن ذلك منها دفعاً لشبهة الفجور والانحراف الحقيقي رغم أنهن كن يتلذذن بسماعه، وكانت بعضهن يطرين عليها ذكاءها وجرأتها، ويشجعنها على هزيمة رمضان في المنازلة.

كانت أم سمعة أرملة رحل عنها زوجها قبل عشرة سنوات، وكان ابنها الذي لم يعرف أحد هل كان اسمه سمعة أم أنه إسماعيل وتدلله بسمعة في العاشرة من عمره، وقالت النسوة حينها أن زوجها لم يحتمل عشرتها مع ألفاظها وصوتها

العالي، وأنها بعد رحيله ظلت دون زواج لأن أي من رجال الدرب لم يكن يريد لنفسه مصيراً كمصير زوجها ... لكن رمضان كان له رأي مخالف فكان دائماً يصفها بأنها "مَرَة مجدع" ...

في ليلة مشئومة عاد سمعة من بوظة المناصرة، يترنح ولا يكاد يرى، ففتح باب الغرفة التي كان يسكنها مع أمه إلى جوار غرفة رمضان، فصعق أن وجد رمضان في فراش أمه، تلفت فرأى سكينة المطبخ على الترابيزة المجاورة للسرير فحملها، وبينما انتفض رمضان محاولاً الهرب عاجله بطعنتين نافذتين.

صحا الدرب على صيحات رمضان، واتجهوا إلى حيث الواقعة فاستبانوا الأمر. كان لابد من إسعاف رمضان وبالتالي بلاغ الشرطة، وستصل التحقيقات إلى الواقعة المسببة، وتنشر الجرائد الحادث، وتصبح فضيحة للدرب.

بسرعة توافق الشيخ المحمدي مع عبد الكريم بائع الكسكسي وعباس البقال وسيد أباله على الستر، وتكتم الأمر، فجمعوا مبلغاً وكلفوا أباله باستدعاء الدكتور حسن ابن عائشة الخرساء لعلاج رمضان وعدم الإبلاغ عن الواقعة. وحين حضر قال لهم:

- الطعنات نافذة وفي أماكن خطيرة، وممكن تحصل وفاة، وعدم الإبلاغ مسئولية كبيرة عليَّ، وفي نفس الوقت لو بلغنا الواقعة زي ما حصلت تبقى فضيحة ومسئولية على سمعه عشان محاولة القتل، ومسئولية على رمضان علشان واقعة الزنا.

وتساءل الشيخ المحمدي:

- طب والحل يا دكتور؟ إحنا وقعنا في حيص بيص؟
- لأ، لا حيص ولا بيص، إحنا نتفق مع رمضان إننا نبلغ إنه وهو داخل الحوش بالليل فوجئ بواحد طعنه بالسكينة في الضلمة وما قدرش يعرف هو

مين؟ وكده تبقى حادثة تتقيد ضد مجهول ... ونعالجه بقى في المستشفى علشان فيها إمكانيات، وتمريض، وغيره.

وافق الحاضرون على ذلك، ونفذوا ما اتفقوا عليه ولم ينطق أحد بلفظ قد يتسرب إلى الشرطة، والتحقيق، ولكنهم أيضاً لم يكونوا ليسكتوا على ما حدث، والذي يمثل سابقة مخزية من وجهة نظرهم وسيؤدي إلى إلتزام الجميع بجدية ثقيلة الدم لا يستطيعون تحمل الحياة في ظلها، لأن أي تجاوز لفظي سيعتبره الكثيرون مقدمة لتكرار ما حدث، فتشاوروا ثم استقروا على ضرورة زواج رمضان – بعد شفائه – من أم سمعة، وصاحت إحداهن متسائلة باستنكار:

- طيب، ونفيسة القرعة؟

وأجابتها إحداهن:

- مالها؟
- مالها إزاي؟ هي مش مراته؟
- وإيه المانع هو مش راجل وله أربعة؟
- يعني نكسر بخاطرها ونقول له يتجوز عليها؟
- يا اختى تتنيل هي دي مرة؟ هي لو كانت مكفياه كان عمل اللي عمله؟ على الأقل كده يبقى حلاله ...

وأجمع الجميع، وفرضوا ما قرروا، وحين اعترض سمعة:

- يعني أبقى شحط وامي تتجوز راجل غريب بعد ابويا؟
- باقول لك إيه يا واد. إنت زي ما بتقول؛ بقيت شحط، يبقى نجوزك البت هندية بنت خلف الفطاطري، وادى انت شغال معاه ومش حا يمانع، وحتى لو مانع حا نحيل عليه شكرية مراته هي شاكماه وممشية كلمتها عليه بس باقولك حاجة، أمك دخلتها كانت قبل جوازتها ... إنت بقى تعقل وتتلم وحانجوزك قبل الدخلة.

تعالت صيحات النساء بالضحك والتعليقات الساخرة، وزادت سخريتهن حين صممن على زواج سمعة من هندية في نفس ليلة زواج أمه من رمضان العربجي.

(2)

سبعة أيام بلياليها، ولم يهدأ الدرب، اشترك الجميع في تعليق الزينات والأعلام، تواصلت بين نوافذهم وبلكوناتهم وتمت معالجة عدم استواء الأرض بكمية من الرمال، وتواصلت الساعات على مدى النهار مع إمداد مكاوي السقا لهم بقرب الماء يرشونه على الرمل حتى أصبح جزءا من أرض الدرب في الأجزاء التي خلت من بلاطات البازلت الأسود التي تم تبليطه بها منذ زمن بعيد ... أما في الليل فاختبار لفروع النور التي مدها زكريا الكهربائي على وقع الطبول والدفوف التي تظهر بيد النسوة في مثل هذه المناسبات. وفي اليوم السابق على الزفاف، اصطحبت مجموعة من نساء الدرب العروستان: أم سمعة وهندية عروس ابنها إلى "حمام التلات"، حمام شعبي يحوي عدداً من المغاطس والأحواض المليئة بالماء الساخن بدرجات متفاوتة، بعضها يتصاعد منه البخار، فيحجب النظر، ويبدو الرواد أشباحاً لا تتميز ملامحهم ... ويتجرد النساء من كل ملابسهن، ويصبحن عرايا كما ولدتهن أمهاتهن، لكي يوفروا الوضع الملائم لإذابة الشحوم من أجسادهن، وخاصة بعد أن يستسلمن ليد "المكيِّسة" التي تدلكهن تدليكاً شديداً، تتلاشى معه تراكمات السنين على أجسادهن، وخلال هذه العملية تتعالى أصوات المرافقات بتعليقات وإسقاطات فجة، وضحكات تجلجل في المكان، تحت ستر الضباب الكثيف، وإن لم يكنَّ في حاجة إلى ستر ...

ويعُدن بزفة فاضحة فوق عربة العريس رمضان، والغريب أن نفيسة القرعة شاركت في عمليات التجهيز للعرس بما في ذلك مساعدة فكيهة البلانة في وضع اللمسات الأخيرة في تهيئة العروستان صباح يوم الزفاف.

غيرت الفراشة معالم حوش المنزل، فامتدت التراكي تستر الجدران الحجرية المتهالكة، كما أخفت سجادتان كبيرتان عيوب الأرضية المفترض أنها من البلاط، كما تفرغ ثلاثة من شباب الدرب لإعداد كوشة من الكريشة وقماش الشيفون لكل من الثنائيان، وعند الغروب وصلت فرقة من عوالم شارع محمد على المجاور يتقدمهم حملة الأبواق والآلات النحاسية في ملابس كاكية اللون متهالكة، وزعم رمضان أنه اتفق مع فرقة "مزيكة البوليس"، وحين تساءل عبد الكريم – بائع الكسكسي – بسخرية:

– بوليس إيه؟ هي دي فرقة البوليس اللي بنشوفها في الميادين في الأعياد؟

أجابه سيد أباله:

– أيوه – البوليس السري!

وحين لاحظ سيد أن نصف الفرقة لا يشارك في الأداء، وإنما يتظاهر بذلك مال على عبد الكريم، وهمس في أذنه:

– شفت يا عبد الكريم؟ أكتر من نصهم لابسين مزيكا.

وضحك عبد الكريم من أعماقه وقال له:

– الله يجازيك يا سيد – انت مش حا تبطل بقى كلامك اللي يسم البدن ده؟

– طب والله باكلمك جد: أصل رمضان متفق مع الفرقة على عشرين واحد، هما ما عندهمش مزيكاتية غير سبعة ثمانية، فيجيبوا سبع، تمن صِيّع زي حالاتي، ويدوا الواحد شلن ولا سبعة صاغ، ويلبسوه اللبس، ويمسكوه اي آلة، ويعمل إنه ممزيكاتي جامد.

وحضر رمضان في جلباب اعتنى منير المكوجي بكيِّه، ولاسة اشتراها من الحمزاوي، مع بُلغة فاسي وعصا في يده فبدا كأحد المعلمين، وجلست إلى جواره أم سمعة في فستان من الساتان الأحمر، وطرحة تُللي بينما جلس ابنها سمعة في الكوشة الثانية في ملابس أفرنكية بدت غريبة عليه ، وإلى جواره

عروسه هندية التي لم تجاوز السادسة عشرة، وقد صبغوا لها خدودها بالتفتاه، وخطوا شفتاها بقلم روج فاقع الإحمرار، وعلى رأسها طرحة بدت معها مثل عروسة المولد ....

وانطلقت الراقصة السمينة تتلوى في رقص لا معنى له، كما استعرضت صوتها الأجش مع نغمات الفرقة الموسيقية المتواضعة .. وخارج الحوش، عشرات من الأطفال يلقون بالبمب ويصرخون أحياناً بالغناء مع الراقصة المطربة، وأحياناً أخرى يتشاجرون، وتعلو أصواتهم بشتائم أقلها نعت الآباء والأمهات بأقذر الصفات، حتي يتحرك أحد الكبار فيفض المشاجرة، ويطرد الأطفال إلى مسافة تبعدهم عن الحوش، قبل أن يتسربوا من جديد، وقد ينجح أحدهم في الدخول إلى الحوش والاندساس في زحام الرجال والنساء.

زغاريد، وتعليقات من النساء، وكثير من أوراق العملة من فئة الشلن والبريزة تنهال على رأس الراقصة وجسدها، أما من يتهور ويرفع الفئة إلى نصف الجنيه، فكان يدسها في صدر الراقصة التي تسمح بذلك مشجعة للآخرين لحذو حذوه ...

ثم يتوقف العزف والغناء والنقطة، لكي تبدأ الزفة، فيخرج الجميع سيراً إلى مدخل الدرب ويقف العرسان والفرقة وجمهور الحاضرين والأطفال على ناصية شارع المناصرة ثم يعودون إلى حيث يصعد سمعة وعروسه إلى الشقة المتواضعة [غرفة بمنافعها] في الدور الأول في بيت عائشة الخرساء التي علا صوتها وأرسلت القبلات في الهواء للجميع .. ومضى رمضان وأم سمعة إلى غرفته في الحوش، وكان قد اتفق مع نفيسة القرعة على أن تنتقل إلى بيت أهلها لمدة أسبوع أو نحو ذلك حتى يدبر الأمور ويستأجر غرفة أخرى تقيم فيها العروس، وتعود هي إلى غرفتها ...

ورفعت الفرقة الموسيقية من صوت الآلات النحاسية والطبول الكبيرة بتواصل، وتجمع أهل الدرب أسفل نافذة سمعة، حتى ألقى إليهم بالبشارة، أو

الإشارة، وهي دليل عذرية العروس، فانطلقت الزغاريد والتصفيق وشاركت النسوة كلهن بأعلى طبقة من أصواتهن يترنمن: حلوة يابلحة يا مقمعة .. شرفتى أخوالك الأربعة .. وتعالى صوت أم أسعد وهي تعلق:

- سبحان الله سمعة سكن في الدور الثاني علشان يرمي البشارة من الشباك، لكن رمضان ساكن في الحوش الأرضي علشان مش حا يرمي حاجة.

وتعالت ضحكات الحريم، ضحكات فاضحة، بينما خجل بعض الرجال وبطبيعة الحال لم يفهم الأطفال شيئاً من ذلك.

وقبل أن يكتمل إنصراف الجميع إلى بيوتهم، فوجئ الحاضرون بثلاث سيارات شرطة تدخل الدرب متتالية، ويهبط منها خمسة ضباط، منهم ضابطان من البوليس السياسي، والباقون من المباحث الجنائية، وعدد كبير من أفراد الشرطة، وسألوا أول من التقوه عن السيد أباله، وحيث أشار إليه، انقض عدد منهم عليه وأوثقوا يديه في "الكلبشات" وطلبوا منه مرافقتهم إلى مسكنه فصحبهم وسط ذهول الحاضرين، وعودة من سبق انصرافهم، وبعد دقائق هبط رجال الشرطة يحملون عددا من الأجهزة الكهربائية وأثواب الأقمشة الفاخرة وزجاجات البارفان والكولونيا، وتساءل الشيخ المحمدي في دهشة:

- إيه دا يا حضرة الظابط؟ هي إيه تهمة السيد؟

- التحريات دلتنا أن سيد ومجموعة بلطجية معاه استغلوا حريق القاهرة فى وسط البلد، ونهبوا المحلات الكبيرة؛ شيكوريل وشملا وغيرهم. يعني البلد بتتحرق ودول بيسرقوها ...

وتمتم الشيخ المحمدي:

- أعوذ بالله من غضب الله. إيه اللي حصل للدرب؟ دا إحنا كنا عيلة كلها محبة ونية سليمة، وضمير حي، حتى أصحاب الأصوات العاليه كانت قلوبهم زي البفتة. لا حول ولا قوة إلا بالله ...

أتمت الشرطة تفتيشها واصطحبوا السيد أباله لعرضه على النيابة العامة واستكمال الإجراءات ... ودخل الشيخ المحمدي إلى المسجد، ووقف إلى بابه حيث رفع الأذان لصلاة الفجر، فتجمع سكان الدرب حيث أَمَّهم في الصلاة وأثناء خروجهم ترامت إلى آذانهم صرخات وشتائم بصوت قادم من اتجاه حوش رمضان، ولم يخطئوا تمييز الصوت، لقد كانت أم سمعة؛ العروس التي دخل بها زوجها من ساعات، فاتجهوا صوب الحوش لعل مكروهاً يكون قد حدث ويكون من واجبهم التعاون على دفعه، أو تكون الشرطة قد عادت للقبض على آخرين ممن دعتهم أفراد عصابة السيد أباله.

وتدافعت النساء نحو المكان بقمصان النوم الكاشفة، وبعضهن حافيات الأقدام، وبدأت العبارات الواردة من الحوش تتضح:

- طلقني يا شملول بدل ما افضحك واجرَّسك.

رد المسكين عديم الحيلة:

- هو انتي لسة حا تفضحيني، ما الدنيا كلها صحيت وسمعت. ربنا يفضحك دنيا وآخرة..

وخرجت أم سمعة مندفعة من غرفتها إلى الحوش، ثم إلى حيث تجمع الناس خارج المنزل، وارتفع صوتها بالنداء على ابنها المسكين:

- يا واد يا سمعة ... يا واد يا سمعة .. اصحى يا واد وبص لي وكلمني ...

وأطل سمعة من الشباك:

- خير يا اما جرى إيه في الساعة دي؟
- جرى اللي لا يتحكي ولا يتقرا. إنت لما ضربت رمضان بالسكنية ضربته فين يا وله؟
- بقى مصحياني الفجر في صبحيتي ولامة سكان الدرب كلهم عشان تسأليني السؤال ده؟

- أمال كنت أسألك امتى؟ لا كنت أعرف عشان أسألك قبل كده. ولا ينفع استنى بعد كده. دا أنا أمك يا واد. طب كنت نبهتني ربنا يحرمك ولا يطعمك ...

حاول الحاضرون تهدئتها دون جدوى، وبعد استيعاب النسوة للموقف قالت أم أسعد:

- فرحة ما تمت. معلش يا أم سمعة مالكيش نصيب.

وصاحت فكيهة البلانة:

- يا خسارة تعبي، وخسارة مصاريفك. طلع نقبك على شونة.

وانطلقت ضحكة جلجلت في الفضاء أعقبتها جملة موجعة على مشهد ومسمع من أهل الدرب:

- انتي بقى مالكيش نصيب في الحلال يا أم سمعه. نفيسة القرعة تكسب ومكروه الدار ساكنها.

****

اللعنة

(1)

بالرغم من عدم تجاوزه الثلاثين من عمره فقد اقتحمته الشيخوخة فى مشاعره وفى تقديراته، واجتاحه اليأس والقنوط من إنجاب الولد، السند فى رحلة الحياة، وصاحب الثأر لو تمكن منه خصومه، وأخذوا بثأرهم منه، وحامل اسمه بعد الممات – وكان يشعر بما يشبه العار، لأنه (فشل) فى إنجاب الولد رغم مرور سبعة أعوام على زواجه، وحين راوده الأمل بعد أن حملت زوجته قبل أربعة سنوات فى إنجاب الولد، وظل تسعة شهور فى انتظار البشرى. بشروه بالأنثى، فكانت صدمة لم تعدلها صدمة إلا تأخر الحمل لثلاثين شهراً تالية، وبدأت الوساوس تصور له أن إنجاب البنت كان استثناءً وأنه لن يرزق بغيرها، فربما كان كشقيقته أم محمد التى تكبره بأعوام والتى تزوجت قبل خمسة عشر سنة، ورغم التردد على الأطباء، والمشايخ، فقد مرت السنون ثقيلة يصغر الأمل ثم يتضاءل فيتلاشى مع تتابعها دون حمل، وتعرضت حياتها مع زوجها للكثير من المشاكل التى وصلت الى حدود الطلاق، ثم ترفق بها زوجها وأبلغها أنه سيبقيها زوجة له على ألا تعترض على ممارسة حقه فى الزواج من أخرى سعياً للإنجاب.

وفى هذا الوقت الذى بدأ يستقر على اختيار الزوجة الفتية، بدأت أعراض الحمل تظهر على أم محمد، وشكر الجميع الله المنعم على ما يشبه المعجزة بحدوث الحمل بعد كل هذه السنوات، واستأذنت أم محمد زوجها صميده فى السفر من الواحات الداخلة إلى أسيوط لتكون فى كنف الأهل، يرعونها حتى تضع حملها، وبفرحة غامرة، وقبول لا يعتريه تردد – وافق صميده مؤكداً ما تأباه عليه رجولته، وما تفرضه عليه مسئوليته:

- أكيد دا أضمن، بس خليكى ليوم الجمعة على ما أرتب نفسى عشان أغيب عن الشغل أسبوع، ونوضب زيارة تليج بالناس اللى حاتجضى عندهم شهور.
- طول عمرك عندك نظر وماتفوتكش فوته.
- الواجب، واجب يا أم محمد وبعدين أنا ما اجدرش اسيبك تسافرى مشوار زى ده لواحدك ..

مرت أيام جمعت خلالها الزوجة السعيدة كمية من بلح التمر، ونصف (فرش عجوة سيوى) واشترت (مرجونة) كبيرة وضعت فيها البلح، وسبقها صميدة مساء الخميس ومعه الزيارة فحملها على سطح الأتوبيس وقضى ليله نائما على مقعدين فى الأتوبيس كطريقة وحيدة لحجز مقعدين له ولأم محمد، فالرحلة قاسية طويلة لا يتصور تحمل الوقوف فى الأتوبيس خلالها .. ولحقت به الزوجة فى الصباح، ومعها عدة أرغفة وقطع الجبن وبعض البيض تكفى لثلاثة وجبات عليهم تناولها خلال الرحلة التى بدأت من مدينة موط عاصمة الداخلة فى الثامنة صباحا .. ووصلت الى مدينة الخارجة بعد الظهر بقليل .. ثم استأنفت المسيرة فى الرابعة لكى تصل الى أسيوط فى الثامنة مساء وقد بلغ التعب بالركاب، وبالأخص أم محمد مبلغاً، خشى معه صميدة عليها من تحمله.

استقبل نجاتى شقيقته وزوجها، فهنأهما على ذلك الحمل المبارك ودعا لهما أن يبارك الله فى مولودهما الذى تمنى أن يكون ولداً، فيكون إبنا لهم جميعاً مادامت إرادة الله لم تشأ أن يكون له ولد .. وانتهت أجازة صميدة فاستأذن فى الرحيل وعاد الى الواحات طالباً من زوجته وشقيقها عدم انقطاع المراسلة للإطمئنان عليها وعلى الجنين فى أحشائها ..

بدأت علامات الحمل تبدو على صفية زوجة نجاتي، فساد البشر، وأحس الجميع، برضا كامل من الله الذى حل عقدة العائلة فى وقت متزامن، ومع مرور الأيام، بدا الحمل متطوراً ومتقدما تبدو علامات تطوره واضحة على صفية، بينما

بقى وضع أم محمد على حاله – لم يلتفت أحد إلى ذلك فى البداية، لكن ستة أشهر على بداية الحمل جسمت شكوكاً مستحقة، وجعلت أم محمد تطلب من صفية أن تستدعى الداية أو أن تصحبها إليها .. وعندما أتمت الداية عملها، اختلت بصفية وسألتها فى دهشة واستنكار:

– مين جال ان مرة أخوكى حبلة؟

– بَهْ ! ماتجوليش إنها فاضية.

– هو كده لافيه حبل ولا غيره، دا دلع نسوان فارغ.

لم تعرف صفية كيف تنقل الرسالة الى أم محمد، فهى لم تهىء أفكارها لاستقبال ذلك الخبر الصادم، فقامت إلى حيث كانت زوجة أخيها فى غرفة مغلقة، فهنأتها على استقرار الحمل، وشغلتها فى أحاديث عن مسائل مختلفة حتى عادا إلى البيت فانتظرت عودة زوجها على أحر من الجمر لكى تشاوره فيما ينبغى فعله، وحين عاد وأبلغته، ارتسمت على وجهه غضبة عبوسة، وأخذ يكرر:

– لا حول ولا جوة الا بالله .. يارب احنا جُلنا انك راضيتنا، وان جلوبنا كلاتنا حاترتاح بخلفة الولد اللى بنتمناه. حكمتك يارب، وجدَّرنا على المصيبة اللى ابتلينا بيها ..

ثم وجه حديثه لصفيه:

– لازم ناخدها للدكتورة جايز الداية ما فهماش زين. وانتى من هنا للعشية حاولى تدخلى فى دماغها ان احنا ح نروح للدكتورة علشان تجول هى حامل فى كام شهر بالمظبوط ونرتب نفسنا للولادة ..

وفى المساء، وبعد كشف الطبيبة، تحدثت إلى أم محمد شارحة الحالة بما يشبه المواساة:

– شوفى يا أم محمد. انتى من اسمك يبان انك انسانه مؤمنة وفاهمة كويس، ان كل شىء فى حياتنا بيد الله، ورغم ان الطب بيحدد ظروف واحتمالات حدوث

الحمل أو موانع حدوثه من مسائل مش عايزة اوجع دماغك بيها زى السن، والتبويض .. وقناة فالوب، وعدد الحيوانات المنوية وحيويتها عند الراجل، لكن ربنا اللى خلق الأمور دى ووضع القواعد لها هو الوحيد القادر على عمل معجزات خارقة للقواعد دى. كل شىء بقدرته ممكن، ومين عارف، يمكن ربنا يعوضك ويحقق لك اللى نفسك فيه.

لم تفهم أم محمد ذلك الحديث المتخصص، ولا استنتجت الهدف منه أو هى لم تشأ أن تستنتج حتى لو كانت قد فهمت فتساءلت فى هلع وجزع:

– معناته إيه الحديت ده يا صفيه؟ فيه إيه يا دكتوره؟

وأجابت الطبيبة بينما ربتت على كتفها:

– الكلام ده معناه، إن اللى عندك دا اسمه حمل كاذب يا أم محمد، يعنى حاجة نفسية، لما بتكون واحدة مشتاقة للحمل بشكل كبير بتحس بأعراض – مش حقيقية – للحمل. وهى دى حالتك، وزى ما قلت لك؛ ربنا كبير وقادر، وما تيأسيش من رحمة الله.

أسقط فى يد أم محمد، وأحست ان مصيبتها فى ذلك الحمل الكاذب هى الأخف احتمالا، اما ما لا يتحمل فهو وقع الخبر على صميده حين يبلغه، ورد فعله إزاءه، فلطمت خديها بقسوة:

– يا خيبتك يا أم محمد .. يا فرحة العدوين فيكى. ياخراب بيتك اللى ما كان على البال.

حاولت الطبيبة التخفيف عنها بعبارات نمطية تتكرر فى مثل هذه الظروف، واحتضنتها صفية فى محاولة للتخفيف عنها، ولكنها أحست خلال ذلك بتقدم بطن صفية كثيراً أمامها، فاستثار صراخها ونحيبها من جديد ..

وفى المنزل كانت صدمة نجاتى أقل من شقيقته حيث استقبل النبأ على دفعتين، وكان قد أعمل الفكر فيما يمكن أن يتصرف به فيما لو أكدت الطبيبة ما

أنذرت به الداية .. وعندما عادتا، اختلى بشقيقته فواساها، وطيب خاطرها وأكد لها أنهما لابد واجدين حلاً، وأنهم لن يبلغوا صميدة حتى يجدوا ذلك الحل، بل وعلى العكس فسيطمئنوه إلى سير الأمور على خير ما يرام، وأن الحمل يسير ويتطور بشكل طبيعى.

فى أحد أيام الشتاء، وبعد أن تناول نجاتي وزوجته صفية وشقيقته أم محمد الإفطار، وارتدى جلبابه الصوف ووضع عباءته الجوخ، وهم بالمغادرة، لاحظ وجوما على وجه شقيقته حرك قلقه عليها فقال لها:

- تحبى تغيرى جو يا أم محمد وتيجى معايا؟ أنا رايح أعاين جنينه حا اتِّفج على شرا المحصول بتاعها. إن شاء الله يكون وشك مليح، ويتم الاتفاج ويكون فيها خير بإذن الله.

وبعد تردد، وشىء من الإلحاح وافقت، ورافقته، وتم الاتفاق على شراء الموالح ودفع عربون لمالك الحديقة، فعادا مستبشرين، وفى الطريق ومع استرسال الحديث الذى طغى على معظمه – بطبيعه الحال – موضوع الخلف، سألته أم محمد:

- قوللى يا نجاتى – لو ربنا رزجك بصبى، وصفية حبلت تانى وجابت صبى تانى، توافج تعطيهولى أربيه .. و .. قاطعها بسرعة:
- إنتى عندك شك يا أم محمد، دا انتى اختى وامى. دا انتى اللى خليتى بالك منى بعد أمنا ما ماتت، وانا ما اجدرش اردلك طلب ولا أكسر لك خاطر لو على رجبتى.

سعدت أم محمد وسرت فى نفسها راحة، أرادت ألا تكون كاذبة كذلك الحمل الذى خدعها فسألته من جديد:

- وصفية حا توافج؟
- هى صفية لها كلام بعد كلامى؟

- داولدها مهماً يكن، وجايز ماتفرطش فى ضناها.
- هى لما تسيبه لك تبقى فرطت فيه؟ طب إيه جولك إنى حا اكتبه فى الحكومة باسمك انتى وصميدة، يعنى يبقى صميده أبوه، وانتى امه رسمى.
- ربنا ما يحرمنى منك يا نجاتى يا ابن امى وابويا، ويخليك لنا ويبارك لنا فيك.

اقتربت الأيام وتهيأت صفية للولادة .. وجاء اليوم، وانطلق نجاتى وعاد وبصحبته ام نجيب الداية التى دخلت – وبرفقتها أم محمد – الى حيث رقدت صفية .... وانتظر نجاتى يعتصره قلقان؛ أحدهما على صفية، والآخر على نوع المولود – كان عقله وقلبه وأمله يرفضون جميعا مجرد احتمال أن ترزؤه صفيه بالأنثى .. زرعت خطواته صحن الدار، ومن الحين للحين كان الباب يفتح لتطلب منه أم محمد شيئاً ما تطلبه القابلة التى انهمكت فى عملها حيث تطلب من أم محمد معاونتها لتسهيل عملية الولادة، ولم يمر من الوقت سوى نصف ساعة حيث ترامى الى سمعه صراخ مولود فاستمر فى قراءة آيات من القرآن، وعلت دقات قلبه حتى كاد يسمعها هى الأخرى، ويُفتح الباب ومعه طاقة الأمل مع طاقة من جحيم الوساوس قطعتها أم محمد بزغرودة رغم فهمه لمعناها إلا أنها لم تكن قاطعة حاسمة فسألها فى لهفة:

- صبى يا أم محمد؟
- صبى يا نجاتى....

الحمد لله. أخذ يكررها ويرفع يديه الى السماء حمدا وشكرا لله الذى أقر عينه أخيراً ولم يلتفت الى أن باب الحجرة أعيد إغلاقه ولما لاحظ إغلاقه تساءل فى نفسه عما يكون السبب، وقبل أن يذهب بعيداً وتلعب به الأفكار سمع زغرودة ثانية فى الداخل قبل أن يُفتح الباب وتظهر أم محمد من جديد والبشر يعلو وجهها:

- عند كلامك يا نجاتى؟
- عند كلامى فى ايه يا أم محمد؟

- فى الصبى التانى اللى ربنا مَنْ علينا بيه.
- صبى تانى؟ صفية ولدت صبى تانى؟ الحمد لله يارب والندر اللى انا ندرته حا اوفيه. اندهى لى أم نجيب وتعالى معاها.

دقائق معدودة وكانت المرأتان تقفان أمامه فوجه حديثا لكل منهما بينما أخرج حافظته العامرة بأوراق النقد من الفئات الكبيرة، وسحب منها ما لم يحصه عددا دافعاً به للقابله:

- امسكى يا ام نجيب مش خسارة فيكى، بس افهمى اللى حاجوله كويس. أنا جالى ولد واحد ولدته صفية والواد الثانى، ولدته اختى أم محمد .. وانتى يا أم محمد خشى نامى على السرير التانى وحا ابعت لنجيبة اخت صفية تيجى تخدم عليكم لغاية السبوع. أنا حاسمى ابنى ناصر وانتى راح تسمى ابنك ايه؟

عقدت السعادة لسانها وتلعثمت ثم احتضنت شقيقها، وأثنت عليه واقترحت أن تسمى الصبى محمد كى تكون (أم محمد) اسما وكنية .. وأقرها الشقيق على رأيها وطلب من القابلة الذهاب الى الصحة لتسجيل اسمى الصبيين، بعد أن كتب لها اسم كل منهما واسم الأب والأم وعلى أن يكون اليوم السابق هو تاريخ ميلاد ابنه، وصباح اليوم تاريخا لميلاد ابن شقيقته إبعاداً للشك اذا توافق التاريخين .. وحذر القابلة من تسرب السر الى أى من خلق الله حتى لا تكون نهايتها ..

خرج الأب السعيد فمضى الى مكتب التلغراف حيث أرسل برقية تهنئة الى صميدة، حرَّكته فور تسلمه إياها فقضى ليله فى الأتوبيس، ومضى الى أسيوط يتمنى لو استطاع أن يسبقه الى ولده وزوجته .. والتأم الشمل السعيد؛ امرأتان فى فراش النفاس، إحداهما تتحمل أوجاعا حقيقية، والأخرى صورة طبق الأصل، ورجلان فى جلسة دائمة فى مكان آخر، يتبادلان سعادة ورضا، ويحسبان ما حدث إشارة من السماء، تقرب ما بينهما مزيدا من القرب، وتؤكد التوأمة بين ولديهما ..

واستأذن صميدة بعد يوم واحد للعودة الى بلده وموقع عمله، شاكرا لنجاتى استمرار ضيافته لأم محمد، ومهنئأ له ولزوجته على ما من الله به عليهما .. وعتب عليه نجاتى:

- انت بتشكرنى يا صميدة عشان مضيِّف اختى .. دى هى فى بيتها، وانا ومرتى ضيوف عندها. اطمن يا صميدة ويكون فى معلومك ان أم محمد مش راجعالك الا بعد ما تربْعَنْ، وحاوصلها لحد عندك هى ومحمد.

وعادت أم محمد تحمل من أصبح ولدها من صميدة ومعها شهادة ميلاد صادرة من الدولة تثبت ذلك، فقرت عينها وعاشت فى أمن ورضا، ترقب محمد وهو يشب عن الطوق، ويكبر تحت بصرها يتواصل مع أبيه وأمه وتوأمه الحقيقيين على أنهم أقارب، خال وزوجته وابنهما.

(2)

نزل خبر وفاة القابلة على قلب بخيت برداً وسلاماً، فهي الوحيدة التي تعرف سر التوأمين، ورغم ارتياح نجاتي لها وثقته فيها، إلا أن الأمان الكامل لم يتوفر على مدى السنوات الخمس التالية للواقعة إلا بوفاتها ..

أما عن صميدة فقد رعي محمد وأحبه وأحسن تأديبه، وأما عن أم محمد فقد غرست حب ابن خاله الذي هو أخيه في الحقيقة – في قلبه، وتناوبت العائلتان الاستضافة لبعضهما البعض وإن زاد تردد نجاتي على زيارة شقيقته في الداخلة، رعاية لها واطمئناناً على ولده محمد، وكان كريماً فيما يحمل من أصناف الملابس والأطعمة، إضافة للنقود التي كان يجزل عطاءها لشقيقته وابنه محمد حتى لا ينخفض مستوى معيشته عن شقيقه الذي يعيش في كنف أبيه وأمه في أسيوط ..

ونجحت تجارة نجاتي في الموالح ومختلف المنتجات الزراعية، ورست عليه كثير من المناقصات لتوريد الحاصلات لوزارات ومصالح حكومية، واشترى بستانين

ضماناً للوفاء بالتزاماته في توريد الفواكه ومن خلال زياراته للواحات أضاف لتعاملاته صفقات التمر والزيتون. توسعت تجارته، وبنى برجاً سكنياً في أسيوط، واقتنى سيارة حديثة ووعد ولده ناصر بشراء سيارة خاصة له حين يبلغ الثامنة عشرة في غضون شهور، وانتوى شراء أخرى لولده وولد شقيقته محمد.

في عيد ميلاد التوأمين، بر الرجل بوعده، وطلب من ناصر ترك سيارته في أسيوط، ومرافقته في السيارة الأخرى حيث يوصلانها إلى محمد في الواحات، ويعودان معاً في المواصلات .. قطعا الطريق حتى وصلا إلى مدينة الخارجة، فاستراحا، وتناولا وجبة مما أعدته الزوجة، واحتسيا الشاي .. ورأى فرصة طيبة لتأكيد تعلم ناصر القيادة، والتدريب العملي على طريق هادئ الحركة ما بين الخارجة، والداخلة، وبعد إلحاح متكرر، وافق الأب، وتخلى عن عجلة القيادة لولده، وتقدمت السيارة على الطريق، والرجل يتابع ولده راضياً عن قيادته، فتناقصت يقظته في المتابعة رويداً .. رويداً، وأثرت الشمس القاسية على عيني نجاتي فأغمضهما استرخاءً، ثم أخذته غفوة مع الاسترخاء والرتم المنتظم، وواجه ناصر حفرة على الطريق الأسفلتي، وأراد تخطيها بالابتعاد عن الطريق المرصوف، فناور بعجلة القيادة بشدة وفجائية في اتجاه الرمال على جانب الطريق، ثم أراد أن يبتعد عنها والعودة إلى الطريق فأدارها بحدة إلى الاتجاه العكسي، وانقلبت السيارة في نهر الطريق، بينما كان لوري قلاب يقترب بسرعة في الواجهة، إذ صدم السيارة فانقلبت عدة مرات، بينما هدَّأ سائق اللوري من سرعته فاستقر فوق السيارة. توفى ناصر على الفور، وقدمت سيارة الإسعاف حيث أقلت نجاتي مصاباً بنزف الدم إلى مستشفى الخارجة التي وصلها جثة لا حراك فيها ..

انتقل صميدة وولده محمد ومعهما أم محمد التي أصرت على السفر معهما إلى الخارجة لإنهاء الإجراءات القانونية مع نيابتها، واصطحبا الجثتين إلى أسيوط

حيث اجتمع معهما إخوة نجاتي الثلاثة للاتفاق على باقي إجراءات الجنازة والعزاء. وتواصل العزاء لثلاثة أيام. ثم راحت السكرة وجاءت الفكرة.

جلس الإخوة يحصرون التركة، ويتفقون على أسلوب التصرف في بنودها، دون مراعاة للحزن الذي ران على جدران البيت الذي يجلسون فيه، ولم يحسبوا حساباً للأرملة الحزينة ولا الطفلة اليتيمة اللتين تتابعان حديثهم من خلف الأبواب، حتى تدخل صميدة في الحديث على استحياء:

- يا جماعة بدري ع الحديت ده. أنا أعرف إن فيه حاجة إسمها: إعلام الوراثة بيطلع م المحكمة، والجاضي بيجسم الورث بالشرع والجانون.

ورد عبد الودود؛ الأخ الأكبر:

- أيوة يا صميدة إحنا مش تايهين، وعارفين الكلام ده. بس الحسبة معروفة والتقسيمة معروفة، مادام مفيش صبي، نبجا داخلين في المراس، وما معاناش حدن في الأرض والجناين.
- إزاي يا عبودود؟ هي مرته وبنته مش هما الأساس؟
- إحنا ماعندناش حريم يورثوا في الأرض يا صميدة. إحنا حا نراعيهم في الأمور التانية، وبعدين خللي بالك إحنا مش حانسيبهم بعد كدة، ولا حا نجصر في حجهم واصل.
- إيوه بس فيه شرع وحكم جاضي ومحكمة .. و ..
- الجاضي يجول اللي يجوله، واحنا حا نعمل اللي في سلونا ..

انصرف الجميع وخرج معهم صميدة فلا يجوز بقاءه في بيت خلا من الرجال واقتصر على الأرملة وابنتها، وتخلف محمد ووالدته لتوديع أرملة خاله وابنتها وفاجأته المرأة الصابرة وهي تحتضنه وتقبله بحرارة بقولها:

- دلوجتي بجيت انت ولدي الوحيد يا محمد. ربنا يبارك فيك، ولابد نشوف صرفة مع أعمامك اللي الطمع ملا جلوبهم وعينيهم.

- أنا ولدك، وزيي، زي المرحوم ناصر، والوجت اللي تحتاجي فيه أي حاجة، شدى لي تلغراف، تلاجيني عندك في الحال.
- لا يا ولدي، انت مش زي ولدي. انت ولدي من المرحوم نجاتي أبوك، وانت توم ناصر الله يرحمه ..
- ظن محمد أن الحزن الشديد والصدمة العنيفة التي تعرضت لهما صفية، قد أثرتا على قواها العقلية وجعلها تهذي بما تتمناه عوضاً عن ولدها الفقيد .. ولما ترفق بها، وحاول مجاراتها جبراً لخاطرها، لاحظت أنه يجاريها مجاملة لها، فتكلمت بمزيد من الحسم:
- يا محمد أني ما فجدتش عَجْلي. أني صاحية، وعارفة باجول إيه يا ولدي. إنت فعلاً إبني، ولك الكوم الكبير في الورس، وأعمامك ملهمش ولا حبة رمل.

نظر محمد إلى الوحيدة التي عرف أنها أمه على مدار السنوات التي مرت من عمره، فمالت برأسها ونظرت إلى الأرض، وعقد الموقف لسانها، فلا هي قادرة على الإقرار بحقيقة قد تدمر حياتها مع زوجها، وتعبث بنفسيتها التي استقرت على مر السنين حتى كادت تنسى ما حدث في واقعة الميلاد – ولا هي قادرة على الإنكار لحقيقة، تنفيها المستندات ولم يعد من شهودها أحياء سواها هي وصفية، صافية النفس التي أعطتها عن رضا فلذة كبدها، ولم توجعها يوما بمجرد إشارة إلى أن ذلك الذي تدعيه ولداً، هو ولدها. كرر محمد السؤال، وأكد له الصمت وتكراره الإجابة عنه ..

احتضن محمد أُمَّيْه في حنو ودموع باردة وسكَّن قلقهما بأنه لن يدع حقا حتى لو حارب الدنيا، وخرج فطلب من والده الذي انتظره بالخارج، أن يعود هو إلى موط وأن يسمح له بالبقاء مع أمه وزوجة خاله وابنتها فرح، حتى يتولى متابعة الإجراءات وإقرار الحقوق.

غادر الأب، بعد أن أوصى ولده باليقظة، وعدم الثقة في أخواله الطامعين مع عدم الوصول بالأمور إلى ما لا تحمد عقباه ..

بعد ظهر نفس اليوم، اصطحب محمد أمه بالتبني عمته في الحقيقة، وتوجه إلى بيت عمه عبد الودود حيث كان معه شقيقه الحاج مصطفى فاستقبلاه بحفاوة، وقدم لهما العزاء من جديد كمدخل للحديث ثم دخل إلى الموضوع الذي حضر من أجله:

- أنا يا عمي سمعت الكلام اللي دار بينكم وبين والدي حوالين الميراث .. واحنا أهل. عُمْر المال ما يفرقنا، ولا بيننا تكليف في شيء. بس ربنا شرع الحقوق، وجعل للي يتعدى الحدود جزا شديد. وربنا يجعلنا من اللي يلتزموا بحدوده ..

وقاطعه العم بنوع من الجدية لم تصل إلى الحدة:

- إنت بخطرك تجول حاجة يا محمد؟
- أيوه يا عمي، إنتوا قلتم لوالدي، إنكم حا تحطوا إيديكم على الأرض والعمارة والجناين، وما معناه يعني تبقوا تدوا أمي حاجة كدة هي واختي؟
- أمك مين واختك مين؟ أم محمد لها في الورث معانا، لكن مرته وبنته، إحنا ما بنفرطش في الأرض تخرج من العيلة ..

وقاطعه محمد:

- أنا أقصد أمي صفية وأختي فرح يا عمي، أنا محمد بخيت مش صميدة .. وكلام م الآخر، وأنا الوريث الأساسي ومعايا أمي وأختي.
- بقى كده. إنت جاي تلاعبنا يا ابن امبارح؟ هو انتم سبكتم الدور بينك وبين صميدة عشان تخشوا تلهفوا الورس. دا بعيد عن شنبكم، واللي حايجرب من حاجة حانجطع يدُّه، ويمكن رجبته.

لاحظت أم محمد أن الأمر يتطور إلى الأسوأ فحاولت قطع الطريق على الشر الذي رأته يطل برأسه:

- يا حاج عبد الودود. أنا أختك الكبيرة وسدجني. تلاتة بالله العظيم محمد ما هو ابني ولا ابن صميدة وإنه ابن نجاتي وصفية، واخويا كتبه باسمي علشان صميدة مايطلجنيش.
- انتو مش بتتكلموا بالورج، وإعلان الوراثة وابصر إيه؟ فين الورجة يا ام محمد؟ فين بطاجة محمد؟ اسمه في البطاجة محمد صميدة ولا محمد نجاتي؟
- الورج حاجة واللي حاصل حاجة تانية.

وتدخل محمد:

- يا عمي آدي عمتي بتقول لك ع اللي حصل، وأمي تجول لك ع اللي حصل ..
- ما ليش في الكلام ده .. والجول جولي أنا واعمامك الرجالة ..
- ما ينفعش، ومش حايحصل طول ما انى عايش.
- عشنا لما حتة عيل ييجي يمشي كلامه علينا ويهددنا في دارنا. يا للا يا فسل إمشي من جدَّامي جَبْل الدم ما يغلي في عروجي واجوم أطخك.
- هي البلد فوضى؟ تقوم تطخني؟ كتكوت أنا قدامك؟
- وأجل م الكتكوت. وباجول لك غور من جدامي الساعة دي وإلا ..
- وإلا إيه؟
- إنت بتناطحني يا مفعوص.

وأخرج مسدسه حيث وجهه إلى رأس محمد مهددا:

والله لو ما كتكمت خالص وحطيت المداس في خشمك لا أكون مفرغه فيك.

- طيب وريني كده الرجولة اللي بتطلعوها ع الحريم.

وانطلقت رصاصة استقرت في جمجمة محمد. فانكفأ على وجهه على الأرض، وصرخت أم محمد وارتمت إلى جواره، تقلب في الجسد الممدد أمامها، فإذا هي جثة هامدة .. وحضرت الشرطة، وقامت بواجبها وتجددت الأحزان؛ مات نجاتي، ومات ناصر، ثم مات محمد، وعبد الودود في السجن، وصميدة يعاني من

صدمة ابنه الذي لم يعد إبنا له، والذى رباه وعاش في بيته كل عمره على أنه ابنه ..

فقدت صفية زوجها وابنيها، وفقدت أم محمد أخيها وابنيه، وفقدت معهم أمومتها التي دامت ثمانية عشر عاماً.

قال تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

صدق الله العظيم

[الأحزاب: الآية 5]

****

المحتوى

القصة	الصفحة
1- ست البيت	3
2- ضحية	9
3- ضربة رأس	23
4- حكاية رشاد	29
5- الرصيف الآخر	39
6- فاطمة	41
7- درب العاقلين	61
8- اللعنة	73

رقم الإيداع

29114/ 2017

المؤلف فى سطور

- محمود محمد علي مبروك
- وشهرته: محمود مبروك